الرسالة



5 me Année, No. 187

Lundi - 1 - 2 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٨٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ١ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

قرآن الفجر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كنتُ فى العاشرة من سنّى وقد جمعتُ القرآنَ كلَّه حفظاً وجوَّدتُه بأحكام القراءة ؛ ونحن يومئذ فى مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة ؛ وكان أبى رحمه الله كبير القضاة الشرعيين فى هذا الإقليم . ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة فى أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان ؛ يدخل المسجد فلا يَبرحهُ إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق ، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ، ويُطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ، ويغير الحياة فى عمله وفكره ، ويهجر تراب الأرض فلا يمشى عليه ، وترابَ المعانى الأرضية فلا يتعرض له ، ويدخل فى الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس ، ويستقر فى المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير ؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطَّبَ الروح بالوضوء ، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية ، المنحنيَ فى ركوعه ليخضع لغير المعانى الذليلة ، الساجدَ بين يدى ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله ؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة ، تشعر القلب البشريّ في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة . .

***

وذهبتُ ليلةً فبتُّ عند أبي في المسجد ؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسَّحور ، ثم أمرني فتوضات لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته . فلما كان السَّحَرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهم لك الحمد ! أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد، أنت بهاء السموات والأرض ؛ ولك الحمد ، أنت زينُ السموات والأرض . ولك الحمد ، أنت قيامُ السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق . إلى آخر الدعاء

وأقبل الناس ينتابون المسجد فانحدرنا من تلك العلِيَّة التي يسمونها (الدِّكة) وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجدُ في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلا يبِص بصيصاً كأنه بعضُ معاني الضوء لا الضوء نفسهُ . فكانت هذه القناديل والظلامُ يرتج حولها ، تلوح كأنها شُقوق مضيئة في الجو ، فلا تكشف الليلَ ولكن تكشف أسراره الجميلة ، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يُومىء إليه ولا يُبَيِّنُهُ ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سر

وكان لها منظر كمنظر النجوم يُتم جمالَ الليل بإلقائه الشُّعَلَ في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينتَه النورانية ؛ فكان الجالسُ في المسجد وقت السَّحَر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس في المكان بقايا أحلام ، ويسرى حوله ذلك المجهول الذى سيخرج منه الغد . وفي هذا الظلام النوراني تتكشف له أعماقه منسكباً فيها روحُ المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدَر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً في حواسه ، منفرداً بصفاته منعكساً عليه نورُ قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على أبواق الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديًا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنضَّرَ من يُبْس ، ويرقّ من غلظة . وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتَحاً بالجمال ؛ فاذا كان شاعر النفس التقى فيه النورُ السماويّ بالنور الانساني فاذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر

***

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك ، وتلك السُّرُج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون ، عليهم وقارُ أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه ؛ وقد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس ، فيكون لكل شيء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه ، فيُخلق فيه الجمالُ الشعري كما يخلق للنظر المتخيل

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث في جو المسجد صوت غَرِد رخيم ، يشقّ سُدْفةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي ، وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنَة وجادلهم بالتي هِي أحسنُ ، إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثْل ماعُوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهُوَ خيرٌ للصابرين . واصبِرْ وما صبرُكَ إلا بالله ، ولا تحزَنْ عليهم ، ولا تكُ في ضيْق مما يَمْكرُون . إنّ الله مع الذين اتقوْا والذين هم محْسنون . »

***

وكان هذا القارىء يملك صوته أتمّ ما يملك ذو الصوت المطرب ، فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرَّف القمري وهو ينوح في أنغامه ، وبلغ في التطريب كلّ مبلغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزّته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر ، فاهتزّ يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد

كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجاة . يصيح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس ، وتتردد في المكان وفي القلب ، ويتحول بها الكلام الالهي إلى

شيء حقيق ، يلمس الروح فيرفضُ عليها بمثل الندى ، فاذا هي ترف رفيفا ، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل

وسمعنا القرآن غضًّا طريًّا كأول ما نزل به الوحي ، فكان هذا الصوتُ الجميلُ يدور في النفس كأنه بعضُ السرّ الذي يدور في نظام العالم . وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور .

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الانسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية

أما الطفل الذي كان فيَّ يومئذ فكأنما دعى بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء فيه من بعد . فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

أنا والأحمـــر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

غضبتُ على ذات دل وحسن . ومن النساء من تدل ولا حسن لها . ومنهن الجميلة التي لا تدرك قيمة ما وهبها الله ؛ ولكن هذه عارفة مدركة أصح إدراك وأدقه . وآية ذلك أنها لا تنفك تؤكد خصائص جمالها وتبرزها بألوان الثياب ، وأسلوب التفصيل ، وبطريقة تسريح الشعر وفرقه ، وبحركاتها ومشيتها ولفتة وجهها ، والجانب الذي تؤثر أن تمنحك منه ، وبابتسامتها وخطرتها ووقفتها ، وبالصورة التي تعرضها على عينك وهي متكئة على ظهر كرسي أو خافة شرفة ، إلى آخر ذلك إذا كان له آخر

وسر هذا الغضب أنها تؤمن بالدلال — كما لا يسعها إلا أن تفعل — وأني أنا أومن بقول المتنبي عليه ألف رحمة :

زودينا من حسن وجهك مادا م فان الجمال حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنـــيا فان المقام فيها قليـــل

فلها عقلها وطبيعتها ، ولي عقلي وطبيعتي ؛ ومن أجل ذلك نحن مختلفان متجافيان - تراني فتعرض عني ، وأراها فأتجاوزها بعيني ، كأنها ليست هناك ؛ وتراجع نفسها أحياناً فتصفو وتقول عفا الله عما سلف ، وتومئ إلى إيماءة تجعلها خفيفة خفية من الكبر والتردد ، فأتجاهل وأتعامى وأتباله ، فترجع إلى شر مما كانت فيه من الغضب والسخط ، وتمنحني كتفها أو توليني ظهرها ، وتمضي الأيام على هذا التقاطع الشديد - أخرج إلى الشرفة وتكون هي مطلة من النافذة فتأخذني عينها ، فما أسرع ما تتناول مصراعي الشباك وتغلقهما بعنف لا داعي له سوى أنها تريد أن تسمعني صوت الاغلاق لأدرك معناه . وأكون أنا في الشرفة فتظهر في نافذتها أو شرفتها ، فلا أكاد أراها حتى أعبس وأمط بوزي . كان من سوء حظي ألا أستطيع أن أقف في الشرفة دقائق من غير أن تسد الفضاء أمامي ، ثم أدور دورة سريعة وأرتد إلى الغرفة ملتمساً الوقاية من جدرانها

ولم يكن هذا حالنا من قبل ، بل كنت أقبل عليها فتهش لي وتريني وميض أسنانها والتماع عينيها ، وكنت ألقاها فتدنو مني حتى لأحس أنفاسها العطرة على وجهي ، وتضع راحتها البضة على قلبي وتقول لي : « كيف حال هذا المسكين الذي لا يمل الدق بل الوثب ؟ »

فأقول « أتريدين أن يمل »

فتقول « أعوذ بالله . . ما هذا الكلام ياشيخ . . »

فأصرف الكلام عن وجهه وأقول « إنه يدق لي ولك ، فلا عجب إذا كان يتوثب »

فتبتسم لي - في عيني - وتقول : « ألا يمكن أن يفتر ذكرك لي - يفتر قليلا - ليرتاح هذا القلب بعض الراحة . . إنه عنيف الدق وأنا أشفق عليه »

فأقول « لا تخافي عليه ولا تجعلي اليه بالك . . دعيه يدق فان هذا عمله وواجبه في الحياة »

ثم نمضي معاً إلى حيث يروق القعود ويطيب الحديث ويحلو النجوى ويحسن الغزل ، ونرجع ضاحكين ونتام ملء عيوننا

وقلت لها مرة « لماذا هذه المساحيق كلها . . ماحاجتك إليها ؟ كيف يمكن أن يفتقر إلى زيفها هذا الوجه الخارج من الفردوس؟

فضحكت وقالت « أهو زيف . . ؟ »

قلت مغالطاً « إنه تأكيد لا حاجة بك إليه »

قالت « يا خبيث . . اعترف أنك تريد أن تقبل فمي وتخشى أن يعلق بشفتيك الأحمر ! »

قلت « ألا يكون مجنوناً أو أعمى ذاك الذي لا يشتهى أن يقبل هذا الفم الجميل ! »

قالت « لا تغالط . . دع العموم إلى الخصوص »

قلت « أتتعمدين أن تضعى هذا الأحمر إذن ؟ »

قالت « لا . . هى عادة ليس إلا . . »

قلت ملحاً : « أتكرهين أن أقبلك . . أو بعبارة أصرح فان عفريت الصراحة ركبنى اليوم . . ألا تشتهين هذه القبلة التى تقيمين فى سبيلها الحواجز وتضعين الأسلاك الشائكة أو الأصباغ العالقة ؟ »

قالت « مالك اليوم . . ما ذا جرى لك ؟ »

قلت : « إن الذى جرى لى هو هذا . . أنت تعرفين أنى أحب فمك . . وأنت لا تكرهين أن أضع شفتى على شفتيك . . وتعرفين أيضاً أنى شديد الكره لهذا الأحمر السخيف ، وتعرفين فوق هذا أن إزالته سهلة إذا هو علق بفمى منه شىء يسير أو كثير ، ولكنى مع ذلك أكرهه لله . . هكذا أنا . . خلقنى الله كذلك ولا حيلة لى . . فلماذا تصبغين به شفتيك على الرغم من ذلك . . ليس الأحمر فى ذاته هو الذى يضايقنى ولكن تعمد وضعه . إذا كان الدلال هو الباعث على ذلك فان الدلال ميسور بغير الأحمر . وعلى أن الدلال حسن وجميل ، وهو يشحذ الرغبة ويقوى الحب إذا كان فى حدود الاعتدال ولم يجاوز المعقول أو المحتمل .. أى ما يسهل على الرجل احتماله بلا عناء شديد أو مرهق ، ولكن المرأة لا تفهم هذا مع الأسف ، وهى لا تزال تلح فى الدلال وتلح وتلح حتى يسأم الرجل وتنتفخ مساحره ويتعذر عليه الصبر ويضيق صدره فيفتر حبه ، لأنه يكلفه فوق ما تطيق أو ما يمكن أن تحتمل طبيعته ، فتذهب المرأة تقول غدر الرجال وعدم وفائهم وتقلبهم ؛ ولو أنصفت للامت نفسها ولأدركت أنها هى التى أملته وأزهقت روحه

فقطبت وقالت « أهذا تهديد ؟ »

قلت « وهذا خطأ آخر .. فليس فيما أقول تهديد وإنما هو عجب واستغراب يدعو إليهما اختلاف الطبيعتين . . »

فقاطعتنى وقالت « قل إن طبيعتك المتجبرة تريد أن تجعل منى ملهاة لنفسك لا تخالف لك إرادة ولا تعصى لك أمراً . . »

فقاطعتها وقلت : « كلا : ليس هناك تجبر ولا شبهه ، إنما أشرح لك ماتغريك به طبيعتك وما تغرينى به طبيعتى . . »

ولا أحتاج أن أروى كل ما قالت وقلت ، فان فى مقدور القارىء أن يتصور ذلك ، وأكبر الظن أن تجارب مثل هذه مرت به وعاناها ، فما تعيش المرأة بغير رجل ولا الرجل بغير امرأة إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ؛ ومتى عاش رجل وامرأة فلا مفر من أن تسوقهما الطبيعتان إلى الشجار والنقار فى بعض الأحيان ، وأكثر ما يحدث ذلك من جراء توافه لاقيمة لها ، ولا يجرى فى الخاطر أن تجر إلى خلاف .

وقد حاولت يومذاك أن ألاعبها وأمازحها بعد فتور الحدة وذهاب السورة ، ولكن تعبى ذهب عبثاً ، ورجعنا وقد أيقن كل منا أن هناك سراً أعوص لما أبدى صاحبه من الجفاء وضيق الصدر .

ولقيتها بعد ذلك ، فقلت لنفسى إن العتاب يجدد مرارة الخلاف ، ولم يكن لى ولا لها مفر من الكلام والنفاق ، فقد كنا فى حفل حاشد من المعارف والأهل ، وانفض السامر فناولتها ذراعى وقلت « تعالى فأن بى حاجة إلى الهواء الطلق » فابتسمت ، فتوهمت أنها نسيت ما كان بيننا أو آثرت مثلى أن تطويه . وإذا بها تقول لى أول ما تقول ونحن فى السيارة « إنك مستبد » فعجبت وقلت : « كيف . ؟ لقد كنت أظن أنى من ألين خلق الله وأسلسهم قياداً »

« فصاحت بى « أنت . . تقول إنك لين سلس القياد .. أعوذ بالله . . »

قلت وأنا أحاول أن أصرفها عن هذا الموضوع الشائك « طيب . . آمنا وسلمنا . . مستبد مستبد . . كما تشائين . . والآن يا جاحدة . . »

وكنت أنوى أن أمازحها ، ولكنها قاطعتنى بسرعة وحدة : « جاحدة . . لماذا بالله . . هه »

فقلت لنفسي إن ليلى لا شك سوداء . . وأنا رجل أكره الجدل العقيم ولا يثقل على نفسي شيء مثله ، ولست أعرف لي صبراً عليه ؛ غير أني ضبطت نفسي ولم أدع عنانها ينفلت من بين أصابعي فقلت : « معذرة . . إني أضحك ولا أعني ما أقول »

قالت « واعترف أنك مستبد »

قلت « إذا كان الاعتراف بما ليس فيّ يرضيك ، فها أنذا أعترف وأمري إلى الله »

قالت « كلا . . إنما أريد اعترافاً صريحاً لا مكابرة ولا تحفظ فيه »

قلت « فليكن ؛ ولكن ما خيره ؟ . ماذا يفيدك أن أقر لك بأني مستبد ؟ . أما إن هذا لغريب »

قالت « اعترف والسلام . . لست أريد فلسفة »

قلت « اعترفنا ياستي . . فهل راق مزاجك ورق »

فضحكت وقالت : « نعم » قلت : « إذن امسحي الأحمر الذي صبغت به شفتيك ، أو دعيني أمسحه لك بهذا المنديل . . إنه نظيف »

قالت « كلا » وأصرت على الرفض والتأبي فقلت : « ألا تدركين أنك مغرورة ؟ » فاحمر وجهها كأنما أفرغت على وجنتيها كل ما في الدنيا من الأحمر ، فقلت وقد تعمدت أن أثقل عليها : « نعم مغرورة . . ولم أكن أحسب شوقي رحمه الله صدق في قوله : والغواني الخ . . تعرفين الباقي . . وأحسبك تتوهمين أن حياتي رهن بأن تمسحي هذا الأحمر . . أو أن روحي معلقة بشفتيك وما يكون أو لا يكون عليهما من الأصباغ السخيفة . . ثقي أن الأمر ليس كذلك . . إنما أنصح لك بمسح الأحمر لأنه . . . »

وأمسكت إشفاقاً عليها من اللفظ القاسي الذي كان على لساني فسكتت ولم تقل شيئاً

والغريب أنها بعد أن نزلت أمام منزلها وودعتها تعمدت أن تقف هنيهة قبل أن تدخل من الباب وتخرج منديلا صغيراً وتمسح به الأحمر عن شفتيها وفي يدها الأخرى مرآة الحقيبة

وكان هذا آخر عهدي بلقائها وكلامها

ولا تزال المعركة ناشبة ، وأحسبنا سنمل هذه الحرب الباردة ـ حرب الشفاه الممطوطة والأكتاف المهزوزة والأشاحة بالوجه والاعراض بالعين وتقطيب الحواجب وتجعيد الجبين ، إلى آخر هذه المناظر المضحكة ، ولولا أني لا أعدم القدرة على رواية الجانب المضحك لانفلقت ، ولكنت حرياً أن ألقي السلاح وأعدل عن الكفاح ، ولكنها هي متكبرة . . أوه جداً جداً . . وأنا كما تعرف . . دائم الضحك ـ هذا أولا ـ وأما ثانياً فاني لا أنفك أقول لنفسي : لقد عشت قبل عهدها دهراً طويلا لا تحس بالحاجة إليها ولا تعرف أنها موجودة . وإنك الآن لتحيا بغيرها ، ولا تعدم نعيما تفيده بدونها ومن غير طريقها ، فماذا ينقصك ولماذا تعني نفسك بالتفكير في الأمر كله ؟ . . دع كل شيء للظروف والمصادفة . . وليكن ما يكون . . . ولكن يخطر لي أحياناً أني قد ألقاها ولا أرى على شفتيها هذا الأحمر ، فماذا يكون العمل حينئذ ؟ . أقول لك . . دع هذا أيضاً للمصادفة وإلهام الساعة ، إن التدبير هنا قلما يجدي أو يصح . .

ولكن ضحكي يخنقها ، وابتسامي يثير سخطها ، وأنا لا أستطيع أن أكره نفسي على التعبيس بلا موجب ، وهذا هو البلاء والداء العياء ، فانها تتوهم أني أسخر منها فتزداد لجاجة في الصد والاعراض ، وأحسبني سأظل هكذا أبداً . . أفسد على نفسي متع الحياة بسوء تصرفي وقلة حكمتي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

ابراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

الانسان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إذا ما استقر الإنسان في موطن آمن، وارتقت عقليته، لم يعد يكتفي بتوفير حاجاته الجسدية واتقاء قوارع الطبيعة، بل بدأ يفكر في نفسه ومنشئه وغايته؛ لم يعد يكتفي بقبول الحياة على علاتها ومداراة غوائلها، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بَعدَها، وأجاب عن تساؤله ذلك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية، بعضها صادق وأكثرها وهمي؛ ثم ما يزال كلما ترقى في مدارج الفكر يعاوده الشك من حين إلى حين في تلك التفسيرات، ويثور على عقائده المتوارثة، ويتناولها بالتعديل والتهذيب، فيكون من ذلك الدين والفلسفة

ويشارك الأدبُ الدينَ والفلسفة في التعبير عن تأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن نشأته ومصيره، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الانسان في الحياة والموت، وافتخاره بقوته وسيادته، وجزعه من ضعفه وقصور حيلته، واعتداده بمبتدعاته في مجال العلم والفن والصناعة، وارتياعه من تضاؤل آثاره تلك جميعاً إزاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون؛ وتصطبغ تأملاته تلك في عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حينا، وبصبغة التشاؤم والقنوط حينا، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والحبور، أو دواعي الانخذال وسقوط الهمة وفتور العزيمة، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارئ، وتشاؤم مصاحب أو عارض.

فتأمل الانسان في نفسه، وتساؤله عن مكانه في الكون، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب الحي. وقد كان ذلك الاهتمام الملحّ بالانسان: قواه وطباعه ومواطن ضعفه، ومفاخره ومعايبه ومصائره ومطامحه، من أبرز ظواهر الحضارة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقي والفنون الاغريقية، ففيها تنويه بالجمال الانساني وترنم بالبطولة الانسانية، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه، وفيها إشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور، وتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصَغار وقهر وآلام، وما تبسط له من مجاج الحرية وماتكبله به من مشعبات القيود؛ وليست مواضيع الدرامة اليونانية المتعددة في صميمها إلا موضوعاً واحداً: هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار

ولحفول الأدب الاغريقي على ذلك النحو بدراسة الانسان، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسية عامة منذ عهد النهضة الأوربية «بالانسانيات»، فان الاطلاع عليها لم يكن كشفا للعالم القديم فقط، بل كان كشفا للنفس الانسانية ذاتها، تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى أشد الاهمال، وازدريت شر الازدراء، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهبا بعيدا، فزعمت الانسان شريراً خاطئاً بالطبع، وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان، لا يذهب مسها عنهم إلا العضا في الصغر، ودوام الندم والاستغفار في الكبر. وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله، فلا غرو خمد الأدب في تلك العصور، إذ لا أدب ولا حياة إلا حيث للإنسان ثقة بالانسان

وقد ورث الأدب الانجليزي فيما ورث عن الأدب الاغريقي تلك النزعة الإنسانية، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الإنسان من جهة، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى: فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وما كبث هي مواضيع الدرامة اليونانية: فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد وشرف المحتد وفضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيما، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدرا من جراء مغامز في شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر إلى سعادتهم فتنغصها، وإلى مجدهم فتثله؛ ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الإنسانية، التي تثير الروعة والإكبار تارة، والشفقة والأسى مرة، والاحتقار والاشمئزاز حينا، والسخر والضحك طورا.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث في الأدب الانجليزي ألفينا نفس ذلك العراك المستمر بين النفس الإنسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامحها، وإثبات شأنها وخطرها، وبين القدر الصارم

القوانين السادر فى جبروته . لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة إلا تجسما واستفحالا . وقد نقله هاردى من عالم الرواية التمثيلية التى تدور حول الأبطال والملوك ، إلى القصة المقروءة التى تدرس المجتمع العادى ، وتتناول أوساط الناس ودهماءهم ، وليست « تس » الفقيرة إلا نظيرة « أوفيليا » المنعمة ، ولا « يهود المغمور » فى طموحه إلى القوة إلا قريع « مكبث » المشهور فى تطاوله إلى العرش : مطامح إنسانية ، وآمال فى المتعة والسعادة ، وأقدار ماضية تعترضها وتبطش وهي عمياء بطش جبارين

وقد كان الموت ولن يزال عدو الانسان اللدود ، وبلاءه الأكبر ، واللغز الأعظم الذى استغلق على فهمه ، ووقف له بالمرصاد كأنما يسخر من كل ما يبنى وما يجمع ، ويتهكم بكل ما يأتى وما يدع ، ويقنعه فى ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وإدراكه ؛ ومن ثم امتلأت الآداب بذكر الموت وصولته وإزرائه بالحياة والأحياء ، وإتيانه على الجبابرة ، وتسويته بين العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل الألاّف ، وتعفيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وعبثه بحور العيون وبياض الأجياد والنحور . وقد تفنن الخيام فى رباعياته فى صوغ هذه المعانى وتحليتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الانسانى ، ومن مجالس الصفو والشراب

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعينى الانسان فى مظاهر الطبيعة الرائعة ، وقواها المصطرعة ، ولججها المترامية ، ومخلوقاتها المقتتلة فى سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ، وغفلتها عن أفراحه وأتراحه ، ومضيها على عاداتها حسُنت به الحال أو ساءت ، وخلودها على رغم فنائه ، وطيها جيلا من الناس بعد جيل ؛ فامتلأ الأدب بذكر ذلك كله . ومن جيل أمثلته مقطوعة هوجو « الطبيعة والانسان » التى يقابل فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها ووشك ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير مأسوف عليه منها ، ولا محسوس فقدانه .

وقد كان شكسبير معنيا بالموت موكلا بالتفكير فيما بعده ، يُنطق بذلك أبطاله كهملت ، الذى يتأمل فى الموت فى خلوته ، ويؤم المقابر حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم وحيث يشهد دفن حبيبته في ريعانها . ولا يمل شكسبير ذكر الموت والبلى ، حتى فى شعره النسيبى ، الذى يتسم لذلك بمسحة الحزن والكآبة .

ولشيرلى مقطوعة رائعة فى الموت سارت بعض أبياتها مسير الأمثال ، وهى تطابق فى شتى المواضع معانى رباعيات الخيام .

ومن أحسن أشعار التأمل فى الموت فى الانجليزية قول كيتس ، وقد كان لضعف بنيته مايزال متمثلا شبح الموت : « حينما يخامرنى الخوف من أن أقضى قبل أن أجنى كل ثمار عقلى الوافرة ، وقبل أن تحويها الكتب المكدسة كما تحوى البيادر المحصول الناضج ؛ وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزاً من الغمائم لرواية تجرى فى علو ، وأذكر أنى ربما لا أعيش حتى أرسم ظلا لها بيد الالهام السحرية ؛ وحينما أشعر يا جميلتى الوشيكة المضىّ أنى لن أراك بعدُ ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب الأعمى ، عند ذلك أقف وحيداً على شاطىء الدنيا الرحيبة ، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء »

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية فى البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه ، واطراد ثورته وبعد غوره . ومن روائع آثار الشعراء فى هذا الصدد أبيات تنيسون التى نظمها وقد قصد البحر مفكراً مهموماً ، يبغى العزاء عن فقد صديق له حميم ، ومنها قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى لابن الصائد إذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضى الجوارى المنشآتُ إلى مرافئها بسفح التل . ولكن من لى أنا بمصافحة تلك اليد التى غابت ، وذلك الصوت الذى سكت » . واستعار شلى رحب البحر وشدة أسره وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشه بالانسان . قال يخاطب الزمان : « أيها البحر الذى لا يُسبر غوره ، والذى أمواجه السنون ، والذى قد غدت أواذيه أجاجا من ملح دموع الإنسان ، والذى يطوى فى مده وجزره أطراف الإنسانية ، ويبشم من فرائسه وإن يكن ما يزال يعوى طلباً لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة »

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التى رضيها الانسان لنفسه مُقاماً وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل ، وما فى بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات ، فنددوا بتلك المساوىء ونادى بعضهم باصلاح تلك المفاسد التى تهبط بالانسان عن رتبته التى هو جدير بها فى الكون ، وتعترض سيره إلى ماينشده من كمال ؛ فكان منهم رادةُ حركات النهوض والاصلاح ؛ بل نادى بعضهم

بفض المجتمع والعودة إلى الطبيعة . ويمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فلتير وروسو . وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر فى الآداب القديمة ؛ أما فى الآداب الحديثة فهى تتعاظم وتشتد جيلا فجيلا . فالنقد الاجتماعى والحض على الاصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى

فالتفكير فى شأن الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الإنسان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ؛ ولاتزال أشباح الماضى والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكوّن لنفسه فى شأنها فلسفة تختلف عمقاً واتساعاً وإقناعاً ، وتختلف فى مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض . على أن هذا التفكير الإنسانى يفرض نفسه فرضاً شديداً على كل أديب أو كل مثقف أو كل إنسان ، فى فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزمات وجدانه ، يشتد فيها تفكيره فى نفسه وبنى جنسه ، ويحفزه إلى التساؤل والثورة على الحياة الإنسانية حادث نفسانى يؤثر فيه أثراً عميقاً : من خيبة أمل أو إخفاق حب أو موت عزيز ، فتتّسم آثار الأديب فى تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة ؛ وقد يحاول إصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس إلى حياة جديدة تصورها له أحلامه ، ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتثبط هياجه وتروض جماحه ، فيُعدّل حياته بما يلائم ظروف الحياة الإنسانية البطيئة التغير الوئيدة الخطى ، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان فى التفتيش عن معايبها

ولسريان الحيوية فى دماء الشعب الانجليزى وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه ، كان أدباؤه إذا راعتهم نقائص الحياة الانسانية وشرورها ، وأحزنتهم ضعف الإنسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة إلى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما فى الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الانسان على الجلاد وبراعته فى الابتكار ، وبطولته وماضيه الحافل بالعظائم ، ويترنمون بمفاتن الطبيعة وما يصيب الانسان عندها من رخاء بال وراحة نفس ، ويطلبون السلوى قبل كل شيء بممارسة فنهم الذى يصور تلك الحياة ويحكيها حكاية تروى من نفوسهم مالا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويراً يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتنها ونعمها التى فاتتهم حكاية تشفى صدورهم . فتمثيل الأديب للحياة فى فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعنتها ، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والاتيان بجديد من عنده .

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على إنشاء قصيدة طويلة فى ذكراه ، ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت إلى شتى نواحى الحياة وشملت نظرته العامة إليها ؛ وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى باخفاق آماله فى الحب والصداقة ، نفّس عن صدره بمآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الانسان ألعوبة عاجزة فى يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته ما يملؤنا روعة ويُبقى أمامنا نور الأمل ؛ ووردزورث حين تبددت أحلامه فى المجتمع الانسانى الفاضل الذى خال الثورة الفرنسية منجلية عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه إلا تعزّيه بمحاسن الطبيعة وقضائه الوقت متفيئا ظلالها مصوراً آثارها فى شعره . وفى عبادة الجمال الطبيعى والانسانى كان كيتس يجد مفزع روحه مما يتكنفه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الداء

ومن أبدع الأشعار التى تعرض جانبى الصورة ناصعهما وحالكهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلى المسماة « أوزيماندياس المصرى » وفيها يقول : « قابلت مسافراً من أرض قديمة قال : تقوم فى الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع ، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور فى الرمال ، تنطق تقطيبته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المثّال قد أجاد قراءة تلك الصفات التى ماتزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد ، وقد فنيت اليد التى صوّرتها والقلبُ الذى غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هذه الكلمات : اسمى أوزيماندياس ، ملك الملوك . انظروا إلى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شيء باق ، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد إلى مالا نهاية » ؛ فهنا وصف شائق أخاذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسطوة الموت وبطشة الفناء

وفى الأدب العربى نرى تزايدَ هذا الاهتمام بالإنسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايدِ حظ العرب من الحضارة والثقافة : فى الأدب الجاهلى وفى صدر الاسلام لا نعثر إلا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر فى ضعف الانسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة إقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها . وفيما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ العارضة ، لا يكرث الشعراء أنفسهم كثيراً بالتساؤل فيما كان وماسوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فمتغزل عاكف على هواه مترنم بليلاه ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح مجتهد فى استدرار صلات الأمراء ، وهجاء ممعن فى إثخان غريمه . ومما أثر عن متقدمى الشعراء فى التأمل فى حال الانسان قول القائل :

مَنَعَ البقاء تقلبُ الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى

وقول الآخر :

ألا تسألان المرء ما ذا يحاول ؟

أنحب فيُقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفكير فى خَلق الإنسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة : فنرى فى شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام من آثار ذلك فوق ما نجد فى شعر الأخطل والشماخ وجميل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة فى القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحاً فى آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومى والمتنبى والشريف والمعرى : لكل من هؤلاء فلسفة إنسانية منثورة فى أنحاء شعره ، ونظرة إلى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومى يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعى والإنسانى يجب أن تغتنم ، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر . والمعرى يرى حياة الناس شقاء وشراً متصلا . والشريف يرى مثله الأعلى فى الفضيلة والمعالى . والمتنبى يرى الناس سواما يحرّ فيهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى . فلسان حاله قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

كما أن جُماع فلسفة المعرى قوله :

فأف لعصريهم : نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

والحق أن المعرى كان أشمل هؤلاء جميعاً نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعاً فكرة ، وأشدهم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر الإنسان والأحياء عامة ، وتفكيراً فى ماضى الإنسان ومستقبله ، وتبصراً فى أحوال مجتمعاته ودياناته ، وله فى كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوبة فى جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره فى أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذى هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكئيبة ، وبنيته السقيمة ، وأعصابه المرهفة .

وفيما عدا المعرى نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشؤون الانسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الإنجليزية ؛ وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاتها . ورغبة فى اغتنام متعاتها والتغاضى عن سوآتها ، وأقل تمرداً ولجاجاً فى الأزمات النفسية . والأديب العربى أكثر تحدثاً عن نفسه وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الإنسان عامة ؛ وهذه النزعة السمحة الراضية ترجع إلى عوامل أهمها طيب المناخ الذى يبعث البشر والثقة ، والايمان الدينى الذى بعثه الإسلام فى نفوس أبنائه وبثه فى مجتمعهم ، والإسلام أكثر تغلغلا فى حياة معتنقيه وتسرباً فى أرواحهم وتجسما فى مظاهر مجتمعهم من غيره من الأديان . هذا إلى أن الحكم المطلق لم يكن يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقداً جريئاً ، وإنما كان يروضهم على الاندماج فى ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء شرها ، كما قال الشاعر :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيحون عما يطوف بهم من خيالاتها علماً بأن من أطال الفكر فى الحياة وغايتها ، والانسان ومصيره ، أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبى ، وحين كانت تطيف بهم تلك الحالات النفسية العابسة ، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون فى حياة الإنسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسّوْن كما يتأسى شعراء الانجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلما أعاروا محاسنها التفاتاً ، كما أنهم قلما اكترثوا لفجائعها وأهوالها ، ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة الإنسانية ، فما يكاد يكون لها فى آدابهم أثر ؛ أو بتاريخ الأمم العظيمة ، فما كانوا يذكرون من أمرها إلا غرور مشيدها وتقويض الزمان لأركانها ، ولا بالتأمل فى مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى إليهم إلا بضعف الإنسان وبطلان مساعيه .

وقد التفت المتنبي إلى شرقي الامبراطورية الاسلامية المترامية فقال:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت إلى غربيها فقال:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور مجتمعه، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط في «الفضيلة الاجتماعية»: في الأخلاق القويمة التي تكسب الإنسان حسن الأحدوثة الموروث حبها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شرور المجتمع الذي لا يد له بإصلاحه، والذي لا تنال شروره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربي بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربي وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول إياس بن القائف:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر مادمتما معا كفى بالممات فرقة وتنائيـــا

وقول الشريف:

لغير العــــلا مني القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت في العيش أرغب
غرائب آداب حباني بحفظهـــا
زماني، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون. وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويشتغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير في منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعي ذاك واضح الأثر في شعر شعرائهم. وفضيلتهم الاجتماعية تلك هي مرجع ازدهار العمران في كل بلد وطئوه، حالما وطئوه، على حين نشر الأغريق الخراب في شرقي البحر الأبيض حين هبطوه، واستغرقوا قروناً طويلة في الاستقرار وتشرب الحضارة؟

فخري أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

٢ - هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

نظرية الاختفاء كما يشرحها الدعاة المصريون

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم أن الدعاة الملاحدة، أعني حمزة بن علي وصحبه، ألفوا في اختفاء الحاكم فرصة لإذكاء الدعوة وتغذيتها، واتخذوا من هذه الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديداً للزعم والارجاف؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عند ما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم.

وقد انتهت إلينا في هذا الزعم — أي زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن علي ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، وإليك ما جاء في تلك الوثيقة الهامة التي تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: «نسخة السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الامام الحاكم، وهي التي يفتتح بها رسائله في متن الدعوة وأصولها حسبما أشرنا فيما تقدم

ويؤرخ الداعي هذه الرسالة بشهر ذي القعدة سنة ٤١١ هـ، أعني عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتتحها بدعوة الناس إلى المبادرة «بالتوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين» وأنه قد سبق إليكم، أعني إلى الناس «من الوعد والوعظ والوعيد من ولي أمركم وامام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم وخليفته، الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع ما اقترفتم فيه من الأعذار والإنذار، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون»

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم

شيئاً منها ، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم فى شىء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه اعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه مالم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم . . . ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ؛ بل منة منه عليكم ولطفابكم ورأفة ورحمة واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ماخصكم به فى عصره من نعمته وحسن منه وجميل لطفه وإحسانه . وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم »

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأقطاع والضياع ، ورفعهم إلى ذرى المراتب وشرفهم بأرفع الألقاب ، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون ، وعاشوا فى نعماء ورغد ، فأقبلوا على الدنيا واعتزوا بها ، وظنوا أنها سبيل الفوز فى الآخرة ، وتظاهروا بالطاعة فى حين أنهم متمسكون بالمعصية ؛ ثم يقول الداعى :

« ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الاسلام والايمان ، التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، ومزيتم من عبدة الأوثان وابانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم . . . وانقادت الذمة إليكم طوعا وكرهاً فدخلوافى دين الله أفواجاً ؛ وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة فى أوقاتها والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الاسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة السدقات ، وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، فشنئتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة ، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنواسرائيل فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دارعلم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام ... وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام ، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون ... »

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو - إنهم - أى الناس ، لم يزدادوا إلا اضلالا وإثما ، وتمادوا فى غيهم وفجورهم ؛ وينعى على الناس هذه النازلة الأليمة ويحذرهم من عواقبها ، ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم : « فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم إسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم ، قال الله ذو الجلال والاكرام : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الإمام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ومنعهم لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الآذان ولا يذكرونه ، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب . وإنهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون ...

ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى الذى آثروه على الهدى »

ويختتم الداعى رسالته الغريبة بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار ، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التى سلكها أمير المؤمنين « وقت أن استتر ، وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم ، وأن يطهروا قلوبهم ، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين ، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة وأن يرحمهم بعودة وليه إليهم . . . » والحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً ، ولا تبرحوا فى طريق يتوسل

جميعكم . . . فاذا أظلت عليكم الرحمة خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، حاضراً فى أوساطكم ، فواظبوا على ذلك ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر . . . الخ » .

ويؤرخ الداعى رسالته بذى القعدة سنة إحدى عشر واربعمائة، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين ، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها [١] .

وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة ، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها ، ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى ، واذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعى يصدر فيه عن إيمان حقيقى ، فانه ينم على الأقل عن براعة الداعى فى عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة ، هذا إلى أن هذا « السجل » يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة فى بادىء عهده ثم فى خاتمته .

على أنه ما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الاسلامية والنصرانية ، المعاصرة والمتأخرة ، لا تشير أية إشارة إلى هذا « السجل » الذى يقول لنا الداعى إنه وجد معلقاً على المشاهد ، ولو وقعت مثل هذه العلانية فى اذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الاشارة إليها ، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا ، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار . وأصدر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولد الحاكم سجله الشهير الذى يتبرأ فيه من هذه المزاعم الخارقة التى قيلت فى أبيه وفى أسلافه ، وفيه يعلن اعترافه إلى الله « بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتدارا ومربوبون اقتسارا ، لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ؛ وأنه قدم انذاره لهم بالتوبة إلى الله من كفرهم ، فمن أصر فسيف الحق يستأصله

وإلى جانب هذه الوثيقة التى كتبها حمزة بن على عقب اختفاء الحاكم . والتى يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه ، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه ، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة أخرى عنوانها « الغيبة » تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أى الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول ، والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحد أكابر الدعاة وأحد « الحدود الخمسة » : وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة ، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذى قطعوه ، ويحذرهم من الدجال الذى يزعم أن الألوهية انتقلت إليه ، والذى عاند الموحدين وحاصرهم ، ويقول إن الدين لا يصح إلا عند الامتحان ، ثم يخاطب الموحدين بقوله :

« معشر الموحدين ، إذا كنتم تتحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه وقد عدمته أبصاركم . . . وإذا فسدت المعدة ضرت البصر ؛ فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة ، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً ، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر إلا البشر

« واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم ، وقد شهدتم فى مواثيقكم بعضكم على بعض بما شرطتموه على نفوسكم . . . » [١]

ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته ، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق ؛ ويشير إلى « الدجال » ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم ؛ وأن المولى غنى عن عبادتهم ، وإنما هى أعمالهم ترد عليهم .

ثم يقول : « ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه .. معشر الاخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم »

ويلوح لنا أن هذا « الدجال » المشار إليه فى هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن الياس ولى العهد ، ووالى الشام ؛ فقد اشتد فى مطاردة الدعاة ، حينما ظهرت دعوتهم بالشأم ، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم ، وهو ما تشير إليه الرسالة .

(النقل ممنوع — للبحث بقية) **محمد عبد الله عنان**

(١) لم ترد هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب والتى لدينا منها نسخة فتوغرافية (وهى محفوظة برقم ١٣٣ عقائد النحل) إذ ينقصها من أولها عدة أوراق ولكنها وردت فى مخطوط باريس ، ومنه لخصنا ونقلنا ما تقدم ، ثم وفقنا أخيرا إلى الحصول على نصها الكامل .

(١) وردت هذه الرسالة فى المجموعة المحفوظة بدار الكتب برقم ٥٤ عقائد النحل : والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها .

الى رجال التعليم :

نقد نظام التعليم فى مصر

للأستاذ ساطع الحصرى بك
مدير دار الآثار العربية بالعراق

يذكر القراء أن المربى الكبير الأستاذ ساطع بك الحصرى كان قد وفد إلى القاهرة فى العام الماضى ليطلع على الأنظمة التعليمية المصرية فزار المدارس وقرأ المناهج ثم لاحظ على نظام التعليم عندنا ملاحظات قيمة لم يرد أن ينشرها يومئذ لصفته الرسمية فى وزارة المعارف العراقية . فلما انتقل منها إلى دار الآثار رأى أن يذيع هذه الملاحظات فى مصر عن طريق الرسالة ليطلع عليها القائمون على شئون التعليم فيها ثم يناقشونها . وهذه فرصة حسنة يتيحها الأستاذ لرجال التعليم ليتبادلوا الرأى فيما يجب أن يكون عليه نظم التعليم فى عهد مصر الحديث . (الرسالة)

— ١ —

لعل أبرز المآخذ التى تستلفت أنظار الباحث المحايد عند ما يلقى نظرة انتقادية عامة على نظام التعليم فى مصر هو « حرمان المدارس الابتدائية من أساس متجانس متين » . فان الدراسة فى هذه المدارس لا تبتدئ ببداءة « الاعمار المدرسية » كما هو شأن المدارس الابتدائية فى سائر أنحاء العالم ، بل تبتدئ بعد ذلك بسنة أو سنتين ، لأن المدرسة الابتدائية لا تقبل إلا من « يعرف القراءة والكتابة » . وهذه « المعرفة » لا تتيسر بطبيعة الحال إلا بالتخرج فى رياض الأطفال ، أو بالدراسة فى الصفوف الأولى من المدارس الأولية مدة سنتين أو أكثر ، أو بالدراسة فى المنزل مدة غير محدودة . وإذا تركنا الدراسة المنزلية جانبا ، ولاحظنا الفروق العظيمة الموجودة بين أساليب التعليم والتربية المتبعة فى رياض الأطفال من جهة ، وفى المدارس الأولية من جهة أخرى ، اضطررنا إلى القول بأن « أسس المدارس الابتدائية فى مصر بعيدة عن « التجانس » بعداً كبيراً . وإذا شبهنا تلك المدارس بالمبانى ، نستطيع أن نقول : إنها ليست مشيدة على الأرض المتينة ، بل قائمة على دعائم غير متجانسة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا من حيث الطول والعرض والعمق والمتانة .

لهذا السبب ، تشاهد بين طلاب الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية فروق عظيمة ، من حيث العمر والمعلومات والقابلية العقلية

ومن المعلوم أن « عدم التجانس بين الطلاب » من أخطر الآفات التى تعترى « نظام التعليم الجمعى » ، ومن أكبر المشاكل التى تعقد مهمة المعلمين الذين يقومون بتعليم عدد غير قليل من الطلاب فى فصل واحد ووقت واحد . ولذلك تجد رجال التربية فى البلاد الغربية يبحثون عن ألف طريقة وطريقة لزيادة التجانس فى الصفوف ويسعون دائما للتأليف بين ضرورات التعليم الجمعى وبين مطالب الفروق الفردية .

وأما نظام التعليم الابتدائى المرعى فى مصر - فبعكس ذلك - يزيد هذه المشكلة زيادة هائلة . لأنه يضيف إلى الفروق الطبيعية فروقا اصطناعية ناشئة عن اختلاف نتائج الدراسة السابقة .

إن التخلص من مضار هذه المشكلة ليس من الصعوبة بمكان . إذ يكفى لذلك تغيير النظام الحالى على أساس « إتمام بناية المدرسة الابتدائية بايصال أسسها إلى الأرض القوية » ؛ وجعلها مؤسسة تعليمية قائمة بنفسها ، تتعهد بتعليم وتربية الأطفال منذ بدء أعمارهم المدرسية ، دون أن تتكل على مؤسسات أخرى فى تعليم القراءة والكتابة .

— ٢ —

ومن المآخذ البارزة التى تستلفت الأنظار فى نظام التعليم فى مصر هى « اصطباغ رياض الأطفال بصبغة مدرسية » واضحة .

ومن المعلوم أن رياض الأطفال تعتبر - عادة - بمثابة معاهد « تربية قبمدرسية » (١) préscolaire تتعهد بتربية الأطفال - حتى وصولهم إلى الاسنان المدرسية - بالأساليب الملائمة للأعمار التى تتقدم تلك الاسنان بوجه عام .

وأما نظام التعليم المتبع فى مصر فينظر إلى « رياض الأطفال » نظره الى « المدارس » تماما . فان التعليمات الرسمية المتعلقة بها تحمل عنوان « منهج الدراسة » و « مدارس رياض الأطفال » ، وتوصل عدد « الدروس » فى الأسبوع إلى الأربعة والثلاثين ، وتكرر كلمات « الدرس » و « الدراسة » و « أوقات الدروس » و « خارج أوقات الدروس » على الدوام ، حتى إنها تنظر إلى « التهذيب » أيضا كدرس من الدروس ، وتعين « الغرض من تدريس التهذيب للأطفال » ، وتبين كيف يجب أن « تلقى عليهم دروس التهذيب » ، وكيف يجب أن يجرى « تدريس التأمل فى مشاهد الطبيعة » .

إن حركة التطور والتقدم السريعة التى حصلت فى ساحة رياض الأطفال منذ بداءة القرن الحالى - ولا سيما ما كان منها بسبب آراء وأعمال دكرولى ومونتسورى - اتجهت على الدوام نحو « تخليص رياض الأطفال من الصبغة المدرسية » . وأعتقد أن أسباب بقاء رياض الأطفال فى مصر بعيدة عن هذا الاتجاه ، بهذه الصورة ، تعود أولا وبالذات إلى كيفية « تكوين المدرسة الابتدائية » . إذ من الطبيعى أنه عند ما يطلب من رياض الأطفال أن تهيء الطلاب إلى المدارس الابتدائية القائمة على الطراز الذى ذكرناه آنفا ، ويحتم عليها تعليم القراءة والكتابة والحساب بالقدر الذى تتطلبه المدارس الابتدائية

(١) منحوتة من (قبل) و (مدرسية)

الحالية - يتعسر جعلها «دور تربية، أكثر من جعلها «بيوت تدريس» ، بل يصبح من الضرورى جعلها « مدارس من نوع خاص » .

إن التعديل الذى يدخل على أسس المدارس الابتدائية ، - وفقا للاقتراح الذى أدرجناه فى الفقرة السابقة - يفسح فى الوقت نفسه مجالا واسعا لاصلاح رياض الأطفال وفقا للنزعات التربوية الحديثة ، ولجعلها بمثابة « معاهد تربية قبمدرسية » - كما تقتضيها النزعات المذكورة - أكثر من « مدارس إعدادية للمدارس الابتدائية » كما هى الحال الآن

— ٣ —

غير أن أهم المآخذ التى تؤخذ على نظام التعليم فى مصر ، هو « الاختلاف العظيم الموجود بين الدراسة الابتدائية وبين الدراسة الأولية » اذ أن مناهج هذين النوعين من المدارس المصرية تختلف بعضها عن بعض اختلافا كليا ، ولا توجد بينهما رابطة منظمة تسهل انتقال الاطفال من الواحدة للأخرى ؛ حتى ولا يوجد تماثل نسبى يساعد على تقريب تأثيراتهما على نفوس الأطفال على الأقل .

لنفرض أننا أخذنا جدولين يبين كل واحد منهما خطة الدراسة المتبعة فى كل واحد من هذين النوعين من المدارس ؛ واستبدلنا فيهما تعبير « اللغة العربية » بتعبير « اللغة البيتية » أو « لغة الأم » ؛ وعرضنا الجدولين على أحد المربين دون أن نخبره بماهيتهما . فلا شك عندنا فى أنه عند ما يقارن هذين الجدولين بعضهما ببعض ، سيظن أن كل واحد منهما يعود الى مملكة ، وسيجزم بأن هاتين المملكتين تختلفان اختلافا كليا من حيث الحاجات والتقاليد والنزعات . واذا أخبرناه بأن هذين الجدولين يعودان الى مملكة واحدة ، فسيقول بدون تردد « اذن يجب أن يكونا عائدين الى دورين مختلفين من الأدوار التى مرت عليها حياة تلك المملكة » ، وسيظن أن هذين الدورين ينفصل بعضهما عن بعض بتطورات خطيرة وانقلابات عظيمة ؛ وعلى كل حال سوف لا يتصور قط أن هذين الجدولين يمثلان مناهج الدراسة المتبعة فى نوعين من المدارس التى تربى أبناء جيل واحد فى مملكة واحدة بل فى مدينة واحدة .

وفى الواقع تصوروا جارين يسكنان فى محلة واحدة ، وافرضوا أن لكل منهما طفلا فى التاسعة من العمر ، غير أن الاول قد أرسل ابنه الى مدرسة ابتدائية فى حين أن الثانى أرسل ابنه الى مدرسة أولية أو الى مكتب عام ؛ ثم قارنوا بين الدروس التى سيتلقاها كل واحد منهما ، تجدوا أن الأول سيخصص ستة فى المائة من أوقات دراسته لتعلم الدين والقرآن ، فى حين أن الثانى سيخصص ثمانية وعشرين فى المائة من مجموع أوقات دراسته لنفس الموضوع ، كما أن هذه الأوقات ستصل الى أربعين فى المائة اذا ذهب الطفل الى أحد المكاتب العامة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأول سيخصص خمس مجموع أوقات دراسته لتعليم اللغة الانكليزية ، وسيبدأ بدراسة تلك اللغة قبل أن يبدأ بتعلم قواعد اللغة العربية نفسها ؛ فى حين أن الثانى سوف لا يتعلم شيئا منها طول مدة دراسته المقبلة . وعلاوة على كل ذلك ، فان الأول سيخصص أكثر من ربع أوقات دراسته للرسم والاشغال اليدوية والتربية البدنية ، فى حين أن حظ الثانى من هذه التمارين والاعمال سيكون شبيها بالعدم .

واذا لاحظنا مدى تأثير هذه الفروق العظيمة على عقلية الأطفال ونفسياتهم ، وجب علينا أن نقول : إن نظام التعليم المتبع فى مصر لا يساعد على تكوين « جيل موحد الشعور » .

كان يوجد فى البلاد الغربية أيضا بعض الفروق بين مناهج الفصول الابتدائية التابعة للمدارس الثانوية وبين مناهج المدارس الابتدائية المستقلة عنها ، غير أن تلك الفروق كانت « طفيفة جداً » بالنسبة الى الفروق الهائلة التى تشاهد بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية فى مصر . مع هذا ، قام علماء التربية ورجال السياسة فى تلك البلاد بحملات عنيفة ضد تلك الحالة ، وأثاروا حولها أبحاثاً دقيقة ومناقشات شديدة ، انتهت فى معظم البلاد بتوحيد أسس الدراسة الابتدائية وفقا لمبدأ « المدرسة الموحدة » école unique ذلك المبدأ الذى يلخص فى عبارة « شعب واحد ، مدرسة واحدة » .

أفليس من الغريب جدا ألا تبدأ فى مصر الى الآن أية حركة ضد هذا النظام ؟ .

إننى لا أجهل بأنه نشأت فى مصر - منذ مدة - حركة مباركة تطالب بتوحيد التربية والتعليم ، وتعمل فى سبيل ذلك بنشاط وقوة . غير أنى ألاحظ فى الوقت نفسه أن أغراض تلك الحركة المباركة وخططها لم تتعد حدود « التوحيد بين المدارس الأميرية والمدارس الحرة » ؛ فى حين أننى أعتقد اعتقادا جازما بأن هذه الحركة لا يمكن أن تثمر الثمرة الكافية ، اذا لم تسع لتوسيع نطاق عملها فتشمل فى الوقت نفسه « توحيد أسس الدراسة فى المدارس الأميرية نفسها » .

إن الفرق العظيم الموجود بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية كان من أول النقائص التى استوقفت نظرى فى نظام التعليم فى مصر عندما زرت مدارسها للمرة الأولى سنة ١٩٢١ قبل مجيئى الى العراق ؛ واستمرار هذه الفروق بدون معارضة أو انتقاد كان من أهم ما استلفت نظرى عند زيارتى الثانية لها سنة ١٩٣٦

لقد عرضت ملاحظتى هذه - عند زيارتى الأولى على وزير المعارف بكتاب خاص . وعند ما قدمت العراق ، وجدت أن السلطة الانكليزية كانت قد نقلت هذا النظام الى هذه البلاد أيضاً ، وكانت قد أحدثت مدارس أولية تختلف بمناهجها عن المدارس الابتدائية . وأول الاعمال التى أقدمت عليها - عند ما توليت ادارة المعارف العامة هنا - كان القضاء على ذلك النظام ؛ فقد وحدت برامج الدراسة فى السنين

الأربع الأولى توحيدا تاما، وجعلت الدراسة الاولية منطبقة على دراسة السنين الأربع الأولى من المدارس الابتدائية كل الانطباق.

أقدمت على ذلك ـ حينئذ ـ تحت تأثير عقيدة تربيوية اجتماعية، قبل أن أرى مفعولها فى كثير من البلاد بصورة فعلية. فان مبدأ «المدرسة الموحدة» كان قد دخل حديثا فى صلب دستور (وايمار) فى ألمانيا؛ غير أن معظم البلاد الأوربية كانت قد ظلت بعيدة عن الأخذ به، كما أن جميع البلاد الشرقية ـ بما فيها تركيا ـ كانت معرضة عنه. غير أن التطورات التى حدثت فى نظم التعليم العام فى تلك البلاد وغيرها ـ منذ ذلك التاريخ ـ أثبتت تماما أننى كنت مصيبا فى ذلك العمل كل الاصابة.

أفلا يجب على مصر أيضا أن تقوم بعملية مماثلة لتلك، وتعيد النظر فى أسس نظامها التعليمى على مبدأ «توحيد أسس الدراسة»؟

— ٤ —

من الأمور التى يجب أن تلاحظ بوجه خاص، أن الفروق العظيمة التى أشرنا الى وجودها بين مناهج المدارس الابتدائية ومناهج المدارس الاولية كانت تتماشى بفروق مماثلة بين معاهد المعلمين الذين يتولون شؤون التربية والتعليم فى كل نوع من نوعى هذه المدارس،

فان معلمى المدارس الأولية يتخرجون فى دور المعلمين الأولية فى حين أن معلمى المدارس الابتدائية يتخرجون فى معهد التربية. غير أن الفروق الموجودة بين دور المعلمين ومعهد التربية فى مصر، لم تكن من نوع الفروق الاعتيادية التى تنتج من اختلاف «درجة التحصيل العام» أو «أسلوب الاستعداد المهنى» فحسب، بل هى من نوع الفروق العظيمة التى تنتج من اختلاف «نوع الدراسة ونزعتها». و«نوع الثقافة التى تتولد منها». وذلك لأن دور المعلمين الأولية تستند على المدارس الأولية، فالمدارس الأولية الراقية، وتستمر على خططها ونزعاتها، فى حين أن معهد التربية يستند على المدارس الابتدائية، والثانوية، ويستمر على خططها ونزعاتها.

إننى لا أود فى هذا المقام أن أتطرق إلى خطط كل من معهد التربية ودور المعلمين الأولية ومناهجها وأبدى رأيى فى هذه الخطط والمناهج نفسها، بل أود أن ألفت الأنظار إلى الفرق العظيم الموجود بين نوع الثقافة واتجاه العقلية التى يستند عليها ويصل إليها كل واحد منهما. وأقول: إن الفروق العظيمة التى شرحنا وجودها بين مناهج الدراسة الابتدائية والأولية تشتد وتقوى بصورة هائلة خلال تطبيق تلك المناهج، من جراء الهوة العميقة الموجودة بين معاهد معلمى المدارس الابتدائية والأولية.

ولهذا السبب تصل «ثنائية التربية والتعليم فى مصر» إلى أقصى الدرجات التى يمكن أن يتصور الانسان وجودها فى مملكة واحدة

إننى كثيرا ما تصفحت التقارير التى قدمها الخبراء الفنيون الذين استقدمتهم الحكومة المصرية للاسترشاد بآرائهم فى إصلاح معارفها، وأردت أن أطلع على رأيهم فى هذه الثنائية، ولو من خلال التقارير التى قدموها؛ وعلمت أنهم لاحظوا هذه الثنائية؛ غير أنهم لم يبدوا أى اعتراض عليها. ويغلب على ظنى أن السبب فى ذلك كان اعتقادهم بأن هذه الأمور تتعلق بتقاليد مصر ونزعاتها التى لا يجوز المناقشة حولها. لأنهم قسموا النظام التعليمى فى مصر إلى قسمين، عنونوا أحدهما بعنوان «المدارس التى على النمط الأوربى» واكتفوا بابداء بعض الملاحظات لاصلاح كل واحد من هذين النظامين على حدة: غير أنى أرى من الضرورى أن نتساءل قبل كل شىء: هل يجوز أن يكون فى مملكة واحدة نظامان من المدارس، أحدهما على «نمط أوربى» وثانيهما على «نمط محلى أو غير أوربى»؟

أنا أعتقد أن ذلك مما لا يجوز بوجه من الوجوه. فعلى مصر أن تأخذ من الأنماط الأوربية ما يلائم حالاتها وحاجاتها، ثم توجد نمطا قوميا خاصا بها. فلا يجوز لها مطلقا أن تؤسس صنفا من المدارس «على النمط الأوربى» بجانب صنف آخر يبقى على نمط غير أوربى. وإذا كان لوجود هذين النمطين بعض المستوجبات والمبررات فى بدء تأسيس المعارف، فلا يمكن أن يكون لبقائهما الآن أى موجب بعد أن وصلت مصر إلى هذه المرحلة من مراحل نهوضها، وبعد أن صارت تحكم نفسها بنفسها...

يظهر أن مصر ألفت هذا النظام المزدوج منذ مدة طويلة. ولعل هذه الألفة الطويلة كانت من أهم الأسباب التى حالت دون انتباه مفكرى مصر إلى أضرار هذا النظام.

غير أننى أعتقد أن إعادة النظر فى أسس النظام التعليمى فى مصر على مبدأ «توحيد أسس الدراسة» أصبحت من أهم الاصلاحات الضرورية لمصر فى بدء عهد نهضتها السياسية والاجتماعية الحديثة. فان بقاء نظام التعليم على ماهو عليه من الثنائية dualité يكون خطرا على وحدة الشعور التى يجب أن تسود البلاد.

قد يقول قائل: لا خوف على وحدة الشعور فى مصر أبدا، لأن هذه الوحدة تجلت بأجلى مظاهرها خلال كفاح المصريين الطويل ضد الحماية والاستعمار؛ غير أنى أقول بأن «وحدة الشعور» التى عملت عملها خلال ذلك الكفاح كانت «وحدة» من نوع خاص، تكونت تجاه عدو مادى وخارجى، استمر فى إرهاق نفوس الجميع منذ مدة تنيف على نصف قرن. أما الآن فستدخل مصر فى حياة كفاح جديدة تتطلب النضال فى سبيل إصلاح النقائص الداخلية، وضمان التقدم فى جميع مناحى الحياة.

إن وحدة الشعور التى تكونت وتجلت خلال الكفاح السياسى

لا تلبث أن تندثر خلال هذا النضال الاصلاحى إذا لم تغذ بتربية موحدة مستندة على نظام تعليمى موحد .

ولذلك أقول : إن إعادة النظر فى أسس نظام التعلم أصبحت من الواجبات التى تتحتم على مصر فى مستهل حياة النهوض التى دخلتها الآن .

— ٥ —

هذه ملاحظات تتعلق بأسس نظام التعليم فى مصر ، أبسطها أمام الرأى العام المستنير بكل احترام وصراحة واخلاص . وأرجو ألا يعتبرنى أحد متطفلا على مصر بهذه الملاحظات ، فأنى عربى صميم أدين بدين « العروبة » فى إيمان وصدق ، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق . ولا أكون مغاليا اذا قلت : إننى أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق ، لأننى أعرف أن مصر — بحسب أوضاعها العامة — أصبحت « القدوة المؤثرة » فى العالم العربى بأجمعه . فأعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية ، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية .

فكل خدمة تسدى الى مصر تكون كأنما أسديت الى سائر البلاد العربية جمعاء .

أبو خلدون

بغداد (ساطع الحصرى)

الفقر أستاذ . . .

للأستاذ السيد محمد زيادة

التقى رجلان فقيران ، كلاهما مدقع ذليل لفقره ... وجلسا يتشاكيان ويتناجيان بأحاديث يصل فيها الفقر إلى الألم ، ويصل الألم إلى الحسرة ، وتبلغ الحسرة إلى الثورة ، وتنتهى الثورة إلى الدموع ... ثم يكون بعد الدموع الاستسلام والجلد والهدوء والراحة

قال أحدهما للآخر : هبك أصبحت غنياً من أهل الترف والنعيم والجاه ؛ فكيف تكون فى غناك . وماذا تعمل إذ ذاك بمالك ؟ .

فأجاب : أكون ظلا مباحا يأوى إليه الشَّرَّدُ بلا قيد ، ويتفيؤه الفقراء بغير عناء ، وأكون حلقة الاتصال بين الأغنياء والمساكين ... أعطى أولئك المكانة والمظهر ، وأعطى هؤلاء النفس والجوهر

وأما مالى فلا يكون إلا مطية للكرم ومجالا للعطف وسبيلا للرحمة ، ولا أكون عليه إلا كالأمين على مال موقوف للخير ، ولا يكون لى منه إلا ما للمرضع من لبن ثديها تدرُّ به للتربية

***

والتقى رجلان غنيان كلاهما مرهوب مرفوع لغناه ... وجلسا يتداعبان ويتنادمان بأحاديث يصل فيها الغنى إلى الفخر ، ويصل الفخر إلى الكبر ، ويبلغ الكبر إلى التعاظم ، وينتهى التعاظم إلى الوقاحة ... ثم يكون من الوقاحة انتفاخ الأوداج واتساع المزاعم وادعاء المستحيل

قال أحدهما للآخر : هبك أصبحت فقيراً من أهل البؤس والعدم ؛ فكيف تكون فى فقرك ؟ وماذا تجد إذ ذاك فى دنياك ؟

قال الثانى : وهل تتوقع الفقر لأمثالنا ؟

قال الأول : ليكن هذا مستحيلا ، ولنفرض أنه وقع ...

قال الآخر : إذن أنتحر ...

***

ومشت الأيام فى طريقها إلى غايتها ... فإذا الفقير المعدم غنىٌ موسر يتدرج نحو الثراء وشيكا ؛ فيجد فى كل عمل حظا ، ويكسب من كل حظ ثروة ، ويحس فى كل ثروة سعادة ... لأن الدنيا رضيت عنه فراحت تسترضيه ، ومالت إليه فأخذت تستميله

وقد كان بين آخر العسر وأول اليسر يحمل تلك النفس الطيبة التى كان يحملها وهو فقير والتى أوحت إليه إذ ذاك أن يقول لصاحبه ما قال ... فظل نفسه باستمساكه بمذاهب الفقر واستعذابه حياة الفقراء !! . ثم تغير قليلا فكانت دنياه مزيجاً من حياته القديمة وحياته الجديدة ، فأنصف نفسه بذلك وعدل بين الفقر والثراء !! . ثم تغير تغيراً بيناً فنسى الفقر ونسى أنه كان فقيراً ، وحقر الفقراء واستقر فى الأغنياء ، وطغى واستكبر ، وبدّل النفس الخيرة بنفس شريرة ، واستطاب لسانه كلمة أنا ... وبذلك لبس الغنى كما يشاء الغنى أن يلبس

وويل للغنى من جهله إذا تسلط على عقله الغرور فتعبّده !! . ينسيه أنه إنسان ويلقى فى روعه أنه فوق مرتبة البشر ، ليجرّده من صفات الانسانية ، ويكسوه صفات غيرها تُصيِّره تحت ؛ ودائماً تحت مرتبة البشر ... المال فى يده مفسدة لخلقه ومضيعة

للفضيلة ونداء للجشع وقضاء على الرحمة ...

لقد تلف الرجل، وفقدته الحياة حياً فلم يصبح معدوداً فى الناس؛ وإنما أصبح رقماً حسابياً لثروة واسعة ليس من ورائها خير

***

ومشت الأيام فى طريقها إلى غايتها، فاذا الغنى الذى استبعد على نفسه الفقر قد رجع فقيراً يستبعد على نفسه الرجعة إلى غناه. تمور به الدنيا وتهيىء له فى كل خطوة عثرة، وفى كل عثرة كبوة، وفى كل كبوة مصيبة، وفى كل مصيبة هماً وشقاء ... لأنها غضبت عليه فراحت تقصيه عنها شيئاً فشيئاً لتقطع أسباب المودة بينها وبينه

وكان فى بدء انكسار حظه واغتراب نجمه يستكبر على الفقر ويتعظم على القدر، ويحاول بشق النفس ألا يتحول مرتعه ولا يتبدل منزعهُ، فوضع نفسه بهذا أمام الدنيا فى موضع الحرَد والعنَت ليناصبها العداء، ويملى عليها العصيان والكبرياء!!. ثم اشتدت عليه غضبة الدهر فأيقظت فيه بعض عقله ونبهته إلى حاله ومصيره... فاعتدل طغيانه، وفتر عنفوانه، وهمّت به نفسه الخائرة الواهنة تريده على أن ينتحر فراراً من الفقر النازل؛ ولكن راجعته بوادر السمو المنساقة إليه فى بوادر الفقر... فتشجع واستمهل نفسه فيما أرادت!!. وكان فى هذا كالذاهب على رغمه إلى ميدان الحرب ...

ثم تمت صنعة الفقر فيه، فتأهب للصبر الطويل، وتماسك عزمه لاحتمال الفاقة وصراع الزمن، وتهذبت سريرته من شوائب الغنى وكفر المادة؛ وبذلك أسلمت نفسه بالحقيقة وحسُن إسلامها.

***

الفقر فى ذاته قبيح شديد القبح؛ ولكنه فى عمله جميل رقيق الجمال، إذا نزل بالرجل مسخه وبدل فى طبيعته، وصير منه للناس الفقراء رجلا خفيفاً محبوباً، وصير منه للناس الأغنياء رجلا ثقيلا مبغَضاً، وصير منه بين أولئك وهؤلاء رجلا بين المحبوب والمكروه... فيصبح الرجل بفقره ثلاثة رجال، لكل منهم روح خاصة تضعهُ فى مكانه من الانسانية

وإذا رضى الله عن رجل ممن ولدوا أغنياء وأحبه امتحنه بمحنة الفقر ليخلق منه إنساناً فى أرفع درجات الانسان، وإذا غضب على رجل ممن ولدوا فقراء ومقته هيأ له الغنى وغمره به، ليخلق منه رجلا آخر بين الانسان والحيوان.. حتى إذا أراد الله وعاد الأول إلى غناه وعاد الثانى إلى فقره شعر كل منهما بنعمة الفقر

وإن الفقير ليتعلم من فقره القناعة فيجد سعادته فى قناعته، كما يتعلم الغنىّ من غناه الجشع فيجد شقاءه فى جشعه...

ولا يعرف الفقير أنه فقير إلا إذا عرف أن غيره غنى... ولا يشعر بوجود الفقر معه إلا إذا شعر بامتناع الغنى عليه؛ فإذا اجتمع قوم من الفقراء ولم يكن بينهم واحد من الأغنياء، لم يجدوا للفقر مَضضاً ولوعة، ولم يحسوا أنهم فقراء... حتى يكون منهم أو يكون بينهم ذو يسار فيرونه فى مباهج النعيم ومناهج السعادة، فيفكرون فيجدون فى حياته حياة أخرى لم يألفوها ولم يعرفوها، ثم يفكرون فيجدون فى حياتهم فراغا لا يملؤه إلا المادة، ونقصاً لا يسده إلا الثراء، ثم يفكرون فيعرفون أنهم فقراء...

والفقراء فى هذه الحياة مظلومون لأنهم يحرمون بقدر ما يعملون...

والفقر يمتاز من الغنى بأنه ألزم للحياة وأدعى لسلامتها. فليس الناس إذا جمعهم الفقر فصاروا جميعاً فقراء، كالناس إذا جمعهم الغنى فصاروا جميعاً أغنياء.. إذ لو أراد الله الحالة الأولى لوجدنا الناس كتلة واحدة مبنية على الطهارة الفطرية مدعمة بالاخلاص الروحى؛ يتبادلون المعروف ويتعاونون على أيامهم بمناعة الايمان وقناعة النفوس... فتصلح لهم وتصلح بهم الحياة، ويعيشون فى نعيم دونه نعيم الغنى...

ولو أراد الله الحالة الثانية لوجدنا الناس كالوحوش بنفوس داجية وعقول ضارية؛ يتعشق كل منهم التسلط حيث لا مجال للتسلط، ويستكبر على القيام براحة نفسه فلا يجد من يقوم براحته... فتفسد عليهم وتفسد بهم الحياة، ويعيشون فى جحيم أخف منه جحيم الفقر...

فالفقر أستاذ أخلاق، ومن قدر له أن يكون أحد تلاميذه فقد قدر له أن يتلقى دروس الحياة ؟

طنطا

السيد زياده

التعـــب

للأستاذ محمد جلال

ألقى الأستاذ ميكائيل فستر Michael Foster خطبة فى هذا الموضوع بجامعة كمبردج فى ١٤ يونية سنة ١٨٩٣ لا تزال ذات قيمة .

ولا بد للباحث من الرجوع إليها ليعرف نشوء الآراء وتبدلها فيما هو بصدده . ولذلك سأبدأ بتدوين ملخص رأيه .

قال الأستاذ فستر : إن قوة الانسان الجسمانية محدودة بنقيصتين هما : ميل الجسم إلى السكون حتى ليعسر حثه على الحركة . وسرعة استعداده للتعب ، أى العجز عن مواصلة العمل المطلوب منه .

والتعب ينشأ حتى من تكرار أبسط الحركات . ولنضرب لذلك مثلا تحريك صنج أو ثقل باليد . إن هذا العمل يتم فسيولوجيا على الوجه الآتى : يحصل فى الجهاز العصبى المركزى - ولنطلق عليه اسم « المخ » تبسيطاً للشرح - تغيرات تبعث على حدوث تغيرات أخرى فى حزم من الألياف تسمى الأعصاب . وهذه التغيرات التى يسميها الفسيولوجيون دوافع عصبية تحدث فى العضلات تغيرات من شأنها أن تجعلها تقصر ثم تنكمش حتى تتلاقى أواخرها معاً ، وفعلها هذا يحرك روافع عظيمة ، وبذلك تنثنى الذراع أو اليد ويرفع الثقل

ومن الجلى أن التعب قد ينشأ بطرق ثلاث على الأقل .

(١) نكوص العضلات (٢) نكوص الأعصاب

(٣) نكوص المخ ، أو نكوص اثنين منها أو الجميع معاً .

أما ما يعترى العضلات من نصب فلا يتوقف على مقدار ما تنفقه من جهد مثل ما يتوقف على مقدار سرعة ذلك الجهد وتعويضه ، أى على مقدار الفرق بين سرعة الهدم وسرعة البناء

ويشذ القلب عن جميع عضلات الجسم بأنه لا يعرف الكلل ، وحينما يعجز عن الاستمرار فى تأدية وظيفته يكون ذلك بسبب اختلال أو فساد يصيب أحد أجزاء الجسم الأخرى لا بسبب اختلاله أو فساده هو إلا فى ماندر .

وتوجد عوامل لتعب العضلات غير الافراط فى بذل رأس ماله الحيوى ، ذلك بأنها ميدان حياة وموت ، إذ تحمل إليها الشرايين مواد حية وتنقل منها الأوردة مواد ميتة . ومن مظاهر الحياة الغريبة أن كل عضو يصنع سما لنفسه وهو يؤدى حركة من حركاته

فالتعب يتوقف على مقدار ما تفرزه العضلة من السم الضار بها كما يتوقف على ما تدخره بقية أجزاء الجسم من قوة تعين بها تلك العضلة على مقاومة ما يعتريها من وهن بإزالة السموم وجلب مواد حية جديدة .

على أن كل عمل تأتيه العضلات يشاركها فيه المخ والأعصاب ، وما ينجم من تعب لا يصيب العضلات وحدها . ومن المشاهد أن الانسان قد يبلغ به الجهد حد الاعياء ، ومع ذلك قد يدفعه الفرح أو الخوف المفاجىء إلى إتيان ما كان يظنه منذ لحظة مستحيلا ، وقد تشل حركتنا وتنضب قوتنا من تأثير انفعال مباغت . ولما كانت العضلات لا تحس ولا تشعر ولا تدرى بما يفاجىء ، فلا يمكن أن تتأثر بالانفعالات ، فالتعب الذى يمحوه الأمل أو الذى يعجل به اليأس لا يمكن أن يعزى إلى العضلات ، بل لابد أن يكون مصدره الجهاز العصبى .

وهنا يجب التنبيه على التفرقة بين الأعصاب والجهاز العصبى ، فالأعصاب لا تتعب مطلقاً ، وإنما الذى يكل هو المخ أو الارادة ، وهذا ما نقصده بالجهاز العصبى ، وهو أقل قدرة من العضلات على تحمل التعب . ولعل سرعة تكرار ذبذبة الأمواج الصوتية والضوئية وغيرها مما يجهد المخ مسجل الاحساسات ، فاننا لنرى أن الصوت المستمر يأتى علينا وقت لا نسمعه كما نفقد الشعور بلسة واصبة ولا نشعر بحلاوة ما نأكل أو نذوق من مادة سكرية نأكلها أو نذوقها دون انقطاع ، واحساسنا يكاد يصبح بليداً ، دون أن ندرك بفعل التكرار ، ولذلك تفقد الملذات لذتها فى نظرنا بطول المدة وتشبع الجسم وسآمته

ولما كانت أعضاء الجسم جميعاً مرتبطة فى العمل ، فالجهد الذى يصيب أحدها لا تسلم منه سائر الأجزاء . ولما كان الدم يحمل السموم كما يحمل المواد المنعشة فان مروره فى الجهات الحساسة كالمخ قد يسبب لها اضطرابا وقلقا أو تخديراً وموتاً .

على أن تلك السموم تفيد بعض الأعضاء التى تتغذى بها أو

تحولها إلى مواد غير ضارة أو تقذف بها إلى خارج الجسم ، ولذلك تجب علينا العناية بالأعضاء الداخلية وخصوصاً الكبد . ولا يفوتنا أن الجلد لا يقل أهمية عن الكبد . وليذكر كل واحد أن لأبداننا علينا حقوقاً يجب أن نوفيها بالراحة والرياضة غير المجهدة » .

هذا بعض ما يقوله الأستاذ فستر .

أما الدكتور فلورى فقد أفرد باباً للتعب فى كتابه الطلى الذى جعله مقدمة لطب النفوس ، وفيه يقول : « إن الانسان يستنفد قواه اليوم ما يتعرض له من مختلف الذبذبات ، فقد أقام المسيو فيريه Féré البرهان على أنه يكفى أن يمر تحت نظرنا لون زاه ، أو على سمعنا صوت ، حتى يهيج جهازنا العصبى إلى حد يزيد قوتنا مؤقتا ثم يعقب ذلك خمول دائم . فاذا قدرنا مايقع تحت أبصارنا من ألوان الصور ، وما يقرع أسماعنا من أصوات الموسيقى وحركة العربات وغيرها ، أمكننا أن نكون فكرة عن مقدار مايذهب من قوانا هباء بسبب التعب الجسمانى ليس غير

وإذا أضفنا الاجهاد العقلى وما تستنفده حياتنا العاطفية استطعنا أن نعرف أن أجل نومنا قصير لا يعوض ما كابدنا من مشقة ، وهذا هو الارهاق بعينه ، ولا يكون علاج هذا الارهاق المدمر إلا باحدى وسائل ثلاث :

الراحة والمران ثم تنبيه المراكز العصبية تنبيهاً منظماً

أما الراحة فتتطلب العزلة التامة بعيداً عن المنغصات والمثيرات فى بيت من بيوت العلاج المائى بحيث لا يقطع تلك الحياة البسيطة التى يقضيها المجهد هناك إلا فترات الأكل والاستحمام والنزهة والتعرض لتيارات الكهرباء الاستاتيكية .

وفلورى يرى أن هذه الوسيلة شرها أعظم من خيرها ولا يقرها علاجاً إلا حين يخفق كل علاج سواها ، فان المرء لا ينبغى له أن يرتمى فى أحضان السآمة بل يجب عليه أن يصون نشاطه ويذكيه بتنمية ميله الطبيعى إلى العمل بالمران . فان البطالة والكسل مصدر كل الموبقات ومنبع عدة اضطرابات وأمراض عصبية . والتعب الحقيقى نادر عارض لا يلازم المفكرين المنتجين إلا أمداً قصيراً ، ولكنه كثيراً ما يلازم الفارين من متاعب الحياة الذين يقضون أوقاتهم دون عمل ، والذين لا ينتجون إلا إذا هبط عليهم وحى أو الهام . لأمثال هؤلاء لا تنفع الراحة إذ هم فى راحة دائمة ، والراحة لا تفيد إلا من تعوزه ، وهى لا تعوز إلا من يبذل أقصى الجهد فى عمل متواصل . أى أناة وجلد ومثابرة ، وأى جهد استلزمته مؤلفات اسكندر دوماس الكبير أو مؤلفات بلزاك أو ميشليه أو هوجو أو تيير ؟ فلنر كيف كان هؤلاء الفحول يشتغلون

يقول دوماس الصغير فى والده : لم يكن والدى يشتغل متقطعاً ، بل كان يشتغل يومياً من وقت استيقاظه حتى الظهر غالباً ؛ ولم يكن الغذاء إلا فترة راحة ، وإذا تناول طعامه وحيداً ، وهذا نادر ، نقلت له مائدة صغيرة إلى حجرة العمل حيث يأكل برغبة ولذة كل مايقدم إليه . فإذا انتهى الأكل عاد إلى كرسى العمل وتناول قلمه . ولم يكن يشرب وقت الغداء إلا النبيذ الأحمر أو الأبيض مخلوطاً بماء سلتز ، فلا قهوة ولا خمر ولا تبغ . أما بقية اليوم فلم يكن يتناول فيه إلا شراب الليمون . وشغله فى المساء قليل ، ولكنه على كل حال لم يكن يسهر أبداً حتى ساعة متأخرة من الليل بل كان ينام نوماً عميقاً .

ولم يكن يشعر بتعب إلا إذا قضى على هذه الحال عدة أيام بل عدة أشهر . عند ذلك يسافر للصيد والقنص فى رحلة قصيرة يستغرق معظم وقتها فى النوم دون أدنى تفكير ، فاذا ماحل ببلدة فيها ما يدعو الى الفرجة ذهب لمشاهدة غرائبها ودوّن مذكرات عنها ؛ فكل راحته فى تغيير العمل .

ولقد شاهدته فى عدة سنين يصاب بالحمى يومين أو ثلاثة عقب عمله اليومى المستمر ، وتبلغ ضربات قلبه ١٢٠ أو ١٣٠ فيعالج نفسه بالنوم العميق وشراب الليمون يوضع له فى جفنة عظيمة على منضدة بجوار السرير ، فكلما استيقظ تناول جرعات ، منها وبعد مضى يومين أو ثلاثة ينتهى كل شىء فيقوم ويستحم ويبدأ عمله .

وكان دائماً فى صحة جيدة لا يرتاح راحة تامة إلا فى الصيد والسفر ، ولم أعهده يرتاح فى المنزل مطلقا . غير أنه كان كثير النوم ؛ وقد ينام بالنهار « على حسب هواه » ربع ساعة نوما مصحوبا بشخير عظيم ، فاذا ما استيقظ أمسك بالقلم ، ولم يكن يمحو شيئا حين يكتب ، وكان جميل الخط

أما دوماس الصغير فكان على خلاف والده ، متقطع العمل

يسكت أشهرا ثم يستأنف الكتابة ، ذلك بأنه كان عديم الخيال ، معتمدا فى تأليفه على الملاحظات والتفكير ؛ فكان لابد من أن يستغرق زمنا طويلا فى المشاهدات ، ثم يفكر فى طريقة صوغ القصة ، حتى إذا ما نضجت الفكرة عمد إلى تدوينها على القرطاس ؛ وكان يقضى مدة المخاض فى حركة ، حتى إذا ما أراد الوضع بدأ عمله مُبكرا واستراح عند الظهر . وكان يحب التأليف فى الريف ، ولا يشتغل فى اليوم أكثر من ساعتين أو ثلاث ، وكلما طال عمله طال نومه وقلت رغبته فى الأكل ، وكانت صناعة الكتابة منهكة له ، وكثيرا ما اضطر إلى الانقطاع عن العمل بتاتا مددا طويلة .

على أنه كان كأبيه من حيث الاعتدال ، فلم يكن يشرب نبيذا ولا قهوة ولا خمرا ولم يكن يدخن تبغا .

أما بلزاك العظيم فقد كان غريبا فى حياته التأليفية ، فلم يكن يكتب إلا بعد أن يلبس لباس الرهبان ؛ وكذلك كان سلوكه مثلهم منظما نقيا جيدا . ويروى تيوفيل جوتييه أن بلزاك كان ينصح لتلاميذه أن ينقطعوا للعمل سنتين أو ثلاثا بمعزل عن الناس ، وألا يشربوا إلا الماء ولا يأكلوا إلا الأرانب ، وأن يناموا عند تمام الساعة السادسة مساء ويستيقظوا عند منتصف الليل فيبدأوا عملهم حتى الصباح ، كما كان ينصحهم بالعفاف المطلق ؛ وكان كثير التكرار لهذه النصيحة الأخيرة . ولم يكن هازلا فى نصائحه . وقد كان عظيم الانتاج بفضل إرادته الخارقة . ومزاجه التقشفى وانقطاعه عن الناس انقطاع المتحنثين الأبرار . وكان فى سلوكه مستقيما حتى لم يكن يشرب النبيذ

وأما هوجو فكان مفرطاً فى شرب الخمر والأكل دون اكتراث ، ولكنه ككل عظماء المنتجين ، كان يبدأ عمله فى ساعات محددة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء . وكان يستيقظ فى الساعة السابعة دائماً فيغسل رأسه بماء بارد ، ثم يبدأ يكتب وهو واقف بسلاسة دون محو صفحات من نثر أو نظم قد اختمر فى عقله فى مساء اليوم السابق فى أثناء نزهته المعتادة بعد الظهر . وما أكثر ما صنف ! ولكن تصانيفه الهائلة لم تجهده أبداً ، وذلك بفضل نظام العمل .

أما ميشليه فكان من عادته أن يكتب مبكراً ؛ فكان فى أول حياته يستيقظ فى الرابعة صباحاً ، ثم أصبح فى وسط حياته يعمل نحو الساعة الخامسة : وفى آخر حياته صارت السادسة هى ساعة بدء العمل . وكان محباً للنوم ، هادئه عميقه ؛ وكان ينام الساعة التاسعة مساء حين كان وحيداً . وكان يدرس قبل نومه الحقائق الأساسية الخاصة بالفصل الذى عليه أن يكتبه فى اليوم التالى . فما لا شك فيه أن العقل يشتغل بالليل وصاحبه نائم .

وكان معتدلا فى غذائه ، لا يأكل شيئا ثقيلا ، ويكثر من الخضر ؛ وقبل بدئه عمله يتناول فنجانة صغيرة من قهوة ولبن دون خبز ؛ وفى الحادية عشرة صباحا يأكل بيضتين وشريحة من اللحم المشوى ؛ وقد يأكل قليلا من الفاكهة ويشرب قليلا من النبيذ . أما الخمر فلم يكن يتعاطاها ولم يكن يحب القهوة الا باللبن

وكان يشتغل فى كل يوم ست ساعات طول حياته ، ولم يكن يحب الملاهى ، وما كان يزورها الا نادرا ؛ وما كان يلهيه عن عمله شىء ، فاذا ما أتم كتابه شعر بأثر متاعب العمل المتواصل فلا ينجيه من آلامه الا الريف والتاريخ الطبيعى

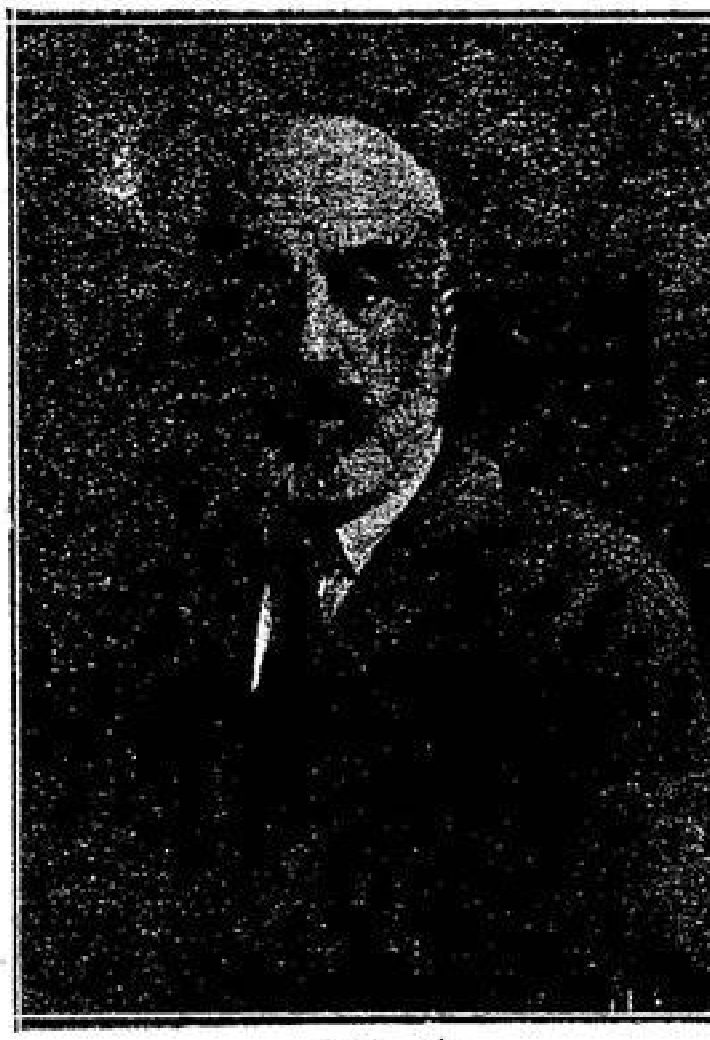
مما سبق يتبين أن هؤلاء العظماء قد اشتغلوا كثيرا جدا دون انقطاع تقريبا مدى عدة سنين ولم يصابوا فى صحتهم بسوء ، فقد عاش دوماس الكبير ٦٧ سنة وميشليه ٧٤ وتيير ٨٠ وهوجو ٨٢ ودوماس الصغير ٧١ ، ولم يمت صغيرا الا بلزاك فقد عاش ٥١ سنة فقط . ولعل لكثرة مشاغله وهمومه المالية أثرا فى ذلك ؛ فكثيرا ما كان يضطر الى العمل ١٦ ساعة فى اليوم شهرين متتاليين أو ثلاثة أشهر . فلا عجب اذا كل وعجز عن المقاومة وإن كان قوى الجسم مفتول العضلات .

شاعر الاسلام (١)

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —



شاعر الاسلام

كنت أقرأ اسم محمد عاكف بين أعـلام الأدب التركى الحديث، وكنت لا أعرف إلا طرفاً من أخباره وأشعاره . فلما سافرت إلى استنبول منذ سبع سنين ، وكان عاكف قد هاجر إلى مصر ، عرفت من سيرته وأدبه ما حببه إلى وشاقنى إلى لقائه . فلما عدت إلى مصر بادرت إلى زيارته ، وكان من سعادة الجد حينئذ أن ألفيته على مقربة منى فى حلوان نازلا فى كنف الأمير عباس حليم باشا رحمه الله

ذهبت إلى داره ، فطرقت الباب فاذا رجل ناهز الستين أشمط ربعة قوى البنية ، عليه سيما الحياء والتواضع . وجلست فتحدثنا قليلا ، فافتتحنا عهداً من المودة المؤكدة والصداقة المخلصة

وكان صديقى حيياً ، نزر الكلام ، كثير التفكر ، طويل الصمت ، نزّاعاً إلى العزلة ، نفوراً من المجامع ؛ فتوفر حظى من لقائه والأنس به ، فقلما زرته فلم ألفه فى داره

وكان أنسه أن أزوره أو يزورنى ، فنفرغ للحديث نصرفه بين الماضى والحاضر ، ونمزج فيه الجد بالفكاهة . ونطوف به فى أرجاء الأدب والتاريخ ، وتتعرف بها أحوال المسلمين . وكان اذا أنس بالمجلس انطلق فى الحديث وتبسط واستزاد المحدث بحسن استماعه واهتمامه . فاذا قاسمنا مجلسنا غيرنا صمت حياء أو انقباضاً ، أو إصغاء أو إنكارا ؛ فاذا سألته لأشركه فى الحديث هز رأسه متجاهلا ، أو ابتسم أو أجاب موجزاً ، ثم راجع صمته . فاذا انفض المجلس أبدى لى رأيه مخالفاً أو موافقاً . ساخطاً أو راضياً

وكان أحب شىء اليه أن نلتقى فى عشايا الصيف ، فنطوف فى حلوان نتعطف فى شوارعها كما تتعطف بنا شجون الحديث ، فلا ننتبه لمكاننا حتى نخرج من أبنية المدينة فنرجع إليها ، ويلهينا الحديث حتى ننتهى إلى طرفها الآخر . وكان قوياً على المشى محباً له لا يذكر الدار إلا إن شكوت إليه التعب ، فيشكينى عائداً إلى داره أو دارى لنقطع الحديث بشرب الشاى .

وكم تحدثنا وقرأنا فى سيرنا وجلوسنا فى الآداب الثلاثة : العربية والفارسية والتركية . وكنت أحب أن أقرأ عليه شعره ؛ وكان يسره أن يستمع له . وكانت كل أحاديثنا وقراءتنا متعة ، نجتمع فيه على الفكر والذوق والأمل والألم . وكان أطيب المجالس مجلسا نفزع فيه الى شعر محمد اقبال . وهو ، رحمه الله ، عرفنى باقبال يوم أعارنى ديوانه « بيام مشرق » . فاذا صفا الوقت عمدت الى أحد كتب اقبال فقرأت واستمع مقبلا مستغرقا يقطع انشادى فى الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه . وشد ما كان يثير إقبال نفسه ، أو يثلج صدره ! وشد ما كان يحزنه أو يفرحه ! وأذكر أننا بدأنا كتاب اقبال « أسرار خودى » فوالينا الجلسات حتى أنهيناه انشادا ، ثم أتبعنا به أخاه « رموز بى خودى » ، فختمناه على شوق الى الاعادة

وكنت عرفت أساتذة كلية الآداب بهذا الأديب الكبير ، فاختاروه لتدريس التركية بها ، فكان محببا الى الأساتذة والطلاب يأنسون به ويجلّونه ويتوددون اليه

— ٢ —

كرّت على هذا الأيام ، وعددنا فيه بضع سنين لا يكاد عاكف يغيب ثلاثة أيام لا أراه فى حلوان أو كلية الآداب . وكان قويا صحيحا مغتبطا بالعافية ، فلم يرُعنا الا أن بدا عليه الهزال والشحوب ، وازداد به الانقباض والحزن ، فاذا سألناه اخبرنا أن

(١) بذلك كان يلقب فى تركيا

مرضا قديما عاوده . وهو يطبّ له ويرجو الشفاء . ثم بدا له أن يذهب الى الشام يستمد العافية من السفر وتجديد الهواء ، فعاد بعد شهرين وقد استفاد أن مرضه لم يزدد . ثم تغيّر وتغيّر فأنكرنا حاله ورثينا له ، واذا الجسم القوى المضمور عظام تحت الثياب ، ولكنا كنا نأمل له العافية ، ونرتقب أن نغتبط به معافى متهللا كما كان .

وكان سفرى الى العراق ، فتركته راجيا أن يتجده الطب فيسترد عافيته ونضرته ، وتطول سعادة أصدقائه وغبطة الأدب به . وكتبت اليه من بغداد فلم أظفر بجواب ، ولم يكن ذاك من دأبه . فالتمست له عذرا من المشاغل وتمنيت الا يكون المرض شغله عن رجع الخطاب ، ثم علمت أنه سافر الى استنبول وأن حاله لاتبشر بالرجوع الى مصر .

— ٣ —

رجعت الى حلوان أفتقد زوراته بالنهار والليل ، وأندب غدواتى وروحاتى اليه ، ممسكا بكتاب أو معُدًّا الحديث ، وأتذكر مجالس عزّت علىّ من بعده ، ومن لى بعد عاكف بمجالسه ؟

وعلمت أواخر الصيف الماضى أن صاحبنا لما به ، وأن داءه قد استفحل ، وغلب اليأس الأمل . ثم انقطعت الأخبار ، وطال الانتظار ، وأرجفت الأنباء ، ولم نظفر من الأمر بيقين . والتمسنا أخباره بالبريد والبرق فلم نستقر على نبأ

ثم طلعت جرائد مصر بالنعى ، وترادفت جرائد تركيا بخبره ، ولكن بالحسرة والرثاء ، وبصورته ولكن فى ساعاته الأخيرة ، وبمشهده ، ولكن محمولا على الأعناق ، وبالخبر اليقين ! ولكن فى بطن الثرى .

فالى رحمة الله التقى النقى ، وفى ذمة الله الأديب الألمعى ، وفى رضوان الله « شاعر الاسلام » .

(للكلام بقية)

عبد الوهاب عزام

سجن شيلون

للشاعر الانجليزى لورد بيرون

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

إلى الذين لايلويهم شىء عما يعشقون من حرية
(المعرب)

تمهيد كتب بيرون هذه القصيدة الجميلة فى فندق صغير فى قرية بالقرب من لوزان ، حيث عاقته ردائة الجو عن متابعة سيره ، وقد أثار مرأى ذلك الحصن العتيق (شيلون) فى قلبه ذكرى فرنسوا دى بونفارد الذى سجنه فيه دوق سافوى من أجل مبادئه الجمهورية عام ١٥٧٠ م وقد جعله بيرون بطل هذه الأقصوصة الخيالية الرائعة .

— ١ —

لقد علق الشيب بشعرى ولكن لم تلده السنون ، كذلك لم تبيض رأسى فى ليلة كما تبيض رؤوس الرجال بغتهم الرعب . وتقوست ساقاى ، وإن لم يك ذلك عن جهد ، بل لقد صدئتا فى سكون موبق مهلك ، إذ كانتا نهب الدمار فى سجن مظلم تحت الأرض

***

وكان حظى فى هذه الدنيا حظ أولئك الذين لا يجدون فى أرضها مضطربا ، ولا فى سمائها مسرحا ، إذ كان ذلك عليهم محرما على أن ما ألاقيه ، إنما هو من أجل عقيدة أبى ! أجل ، من أجل تلك العقيدة أقاسى الأصفاد وأغازل الموت طالبا يده !

***

ولقد قضى ذلك الأب نحبه مستشهدا على خشبة الصلب ، فى سبيل مبادئه ، التى لم يكن ليثنى عنها ، وفى سبيل هاتيك المبادىء عينها ، يجد أبناؤه مأواهم فى ظلمات السجن

***

كنا سبعة ، نحن الذين تراهم الآن واحدا فحسب ، ستة فى الشباب وواحداً فى المشيب ، انتهوا جميعا كما بدأوا فخورين بما صبه الاضطهاد على رؤوسهم من نقمة .

ألقى بواحد فى النار ، وهلك اثنان فى الميدان ، حيث طبع الدم عقيدتهما بخاتمه ، وذهبا كما ذهب أبوهما فى سبيل الله الذى أنكره أعداؤهم ، وألقى بالثلاثة الباقين فى غيابة السجن حيث لم يعش منهم سواى أنا ... حطامهم الباقى

— ٢ —

هنالك فى سجن « شيلون » ذلك السجن العتيق العميق ، توجد سبعة أعمدة أقيمت على النمط القوطى . سبعة أعمدة ضخمة شهباء ، تتراءى كالحة على بصيص منبعث من شعاع كئيب سجين ، شعاع من أشعة الشمس ضل طريقه ، فسقط من خلال الشقوق فى الجدار الضخم على أرض السجن ، وأخذ يزحف فوق تلك الأرض الرطبة المبللة كأنه خيال المذنب انعكس فى مستنقع

***

فى كل عمود من تلك الأعمدة علقت حلقة . وفى كل حلقة ربطت سلسلة . آه . يا لهذا الحديد من آكل ، فها هى ذى أسنانه لا يزال أثرها فى ساقى ولن يزول ذلك الأثر إلا بزوال هذا النهار الجديد ، الذى تتأذى به الآن عيناى وتتألمان ، لأنهما لم تريا الشمس هكذا تشرق منذ سنوات لا يسعنى حصرها ، فقد نسيت عددها وغاب عن وعيى تعاقبها الثقيل ، منذ أحنى آخر إخوتى رأسه وفارق دنياه ، وأنا بجانبه لا تزال تدب فى جسمى الحياة !

— ٣ —

أوثقونا كلا فى عمود من تلك الأعمدة الحجرية وكنا ثلاثة معا ، ولكن كل فى معزل عن أخويه ، ولم نك نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة ، ولم يك يتسنى لأحدنا أن يرى وجهى الآخرين لولا ذلك الضوء الشاحب الأغبش الذى جعل كُلاً منا غريبا فى عين أخيه : وهكذا كنا معا وإن كنا فى الوقت نفسه منفردين ، كانت أيدينا مغلولة مربوطة ، ولكن قلوبنا كانت تذوى من الحزن .

***

على أننا مع ما كنا نقاسيه من حرمان أنفسنا من عناصر الحياة الصافية وجدنا بعض العزاء أن كنا نستطيع أن نتحادث ويسمع كل منا كلام أخويه فيسرى كل عن الآخرين بما ينشد من أمل جديد أو بما يذكر من أسطورة قديمة أو بما يتغنى به من نشيد حماسى من أناشيد البطولة

***

ولكن هاتيك التعلات وا أسفاه قد تسربت إليها فى النهاية برودة المكان ، وصار لأصواتنا رجع كئيب موحش هو الصدى المرتد من أحجار ذلك السجن ، صارت أصواتنا حبيسة ضعيفة ، ولم تعد كما كانت بالأمس طليقة مليئة . ربما كان ذلك وهما ، ولكنى لم أعد أتبين فى تلك الأصوات أصواتنا السوالف .

— ٤ —

كنت أكبر هؤلاء الثلاثة ، وكان على ان أشد أزر أخوى وأسرى عن قلبيهما ، ولقد قمت من ذلك بأحسن ما استطعت ، وكذلك قام كل منهما بما وسعه

***

وتالله لقد حرك الحزن نفسى من أعماقها ، وبلغ الأسى منها كل مبلغ من أجل أخى الأصغر ، ذلك الفتى الذى أحبه أبى لأنه كان يرى فى جبهته جبهة أمه ، وكان يرى فى عينيه لازورد السماء

وفى الحق إنه مما يذكى القلوب أسى أن يرى مثل هذا الطائر فى مثل ذلك القفص . ذلك لأنه كان جميلا كالنهار حين كان يبدو لعينى من جمال النهار بقدر ما يبدو منه لأعين النسور الفتية المحلقة فى جو السماء ؛ كان جميلا كنهار القطب ، لا يرى الغروب حتى يتصرم صيفه ، ذلك الصيف الصاحى الطويل زمن ضوئه ، ابن الشمس المتشح ببياض الثلج .

كان أخى شبه ذلك النهار فى نقائه وبريقه ، وكان عذب الروح يفيض بالمرح ، ولا تعرف عيناه الدموع فى شىء ، اللهم إلا فيما ينال الآخرين من شقاء ، وهنالك تفيضان كما يفيض الغدير المنحدر من الجبل ، ولن يرقأ دمعه حتى يدفع ذلك الشقاء الذى أزعجه مرآه وأمضه

— ٥ —

وكان الآخر مثله فى صفاء الروح ، ولكنه خلق محارباً مقداما ، فكان قوى البنية ، متين الأعضاء ، له من قوة الأرادة ما يتحدى به العالم فى ساحة الحرب ، وكان أشد ما يبهج نفسه أن يتاح له الموت فى طليعة الصفوف ، لا أن يذوى هكذا فى الأغلال .

ولقد أوهن روحه صليل تلك الأغلال حتى ذبلت كما تذبل الزهرة ، ورأيتها تتساقط شيئا فشيئا ، وفى الحق لقد نالنى مثل ما ناله ، ولكنى تجلدت لأبقى على حشاشة هذا البيت العزيز الغالى ، وكان أخى هذا صائداً يطارد الغزلان والذئاب على متون التلال ، ولذلك كان يرى فى هذا السجن أقبح هوة وفى تصفيد قدميه أسوأ عذاب .

— ٦ —

كانت تقع بحيرة ليمان تحت أقدام ذلك الحصن على عمق ألف قدم . وكانت لججها تتلاطم وتعج حتى لتصل إلى رأسه وتجعل قياس عمقه يبدأ من تلك الرأس البيضاء التى كانت تكتنفها الأمواج من جميع النواحى ، وتجعل مع الحائط من الحصن سجنين ؛ وتدعه كالقبر الحى !

وكان يقع القبو الذى ألقى بنا فيه تحت سطح البحيرة ، وكثيرا ما سمعنا موجها فوق رؤوسنا يلطم الجدران بالنهار والليل ، ولقد أحسست ثبج الشتاء يضرب القضبان فى الريح العاصفة ورأيته ينبعث صعداً نحو السماء الهائجة .

وعند ذلك ارتج الصخر وهو الصخر ، وأحسسته يهتز وما هو بالمهتز ، ذلك أنى كنت حينئذ أستطيع أن أبتسم ، أن أرى الموت الذى يطلقنى من هذا الأسر !

البقية فى العدد القادم — الخفيف

الشـــــتاء

للأستاذ أديب عباسى

أحسب أن مقال الاستاذ الكبير (احمد أمين) فى امتداح الشمس وذكر آياتها فينا وأياديها علينا، كان بداعى توارد المعانى والانتقال الطبيعى من موضوع «الضحك» إلى تاليه فى «الشمس»

فالشمس بما ترسل إلى النفوس فى الشتاء من إشراق، وما تشيعه فى الوجوه من بشر، وما تبعثه إلى القلوب من حرارة، تعمل عمل الضحك فى النفوس والأجسام. ومن هنا ما جوّزت لنفسى أن أفترض من انتقال الأستاذ بين الموضوعين انتقال توارد لا انتقال عفو

وأنا أعترف بأنى متأثر الأستاذ الكبير، متأثر به فى كتابة هذا الفصل. فلولا موضوع الشمس الذى دبّجت يراعته الساحرة ما كنت فى الأرجح أفكر فى موضوع «الشتاء»، وأكتب فيه فى هذا الفصل الذى يغرى بالاعتكاف والانكماش. ولولا طريقة الاستاذ فى امتداح الشمس والتغزل بمحاسنها لكانت لى خطة تباين فى الراجح هذه الخطة عند الكتابة فى هذا الموضوع لو عنيت يوما أن أكتب فيه

والشتاء — كما لابد أنك تعلم — أقل فصول العام نصيباً من احتفال الشعراء والكتاب له. ومن هنا كان ما قيل فيه مدحاً وهو القليل، وذماً وهو الكثير، أقل لما جاء فى الربيع أو الصيف أو الخريف مدحاً وثناء. ولعل ذلك لما يرين على النفوس فى هذا الفصل من حرج الشتاء وضيق البرد مما يذود عن الشعراء أقل الشعر والنثر فى التغزل بالشتاء ومدح القر. على أنى سأخرج على هذه القاعدة وأمتدح الشتاء فى فصل الشتاء عينه وإبّان اشتداده وسورته غير العادية فى هذا العام.

وأول ما نذكره للشتاء وغيومه المقطبة وبروقه الملعلعة ورعوده المقعقعة وغيثه المنهل وسيله الحادر ونهره الهادر، أنه فصل الأحياء والبعث فى الطبيعة، وأنه محرك رواقد الأجنة وغوافى النبت، ثم هو مغذى الزرع وباعث الرزق ومحيى الضرع. ولعلة واضحة وسبب مقبول أن اشتق العرب الغيث من الغوث، إذ لولا الشتاء ما نبت نبت ولا تفتح زهر ولا اكتسى دوح ولا فاح عطر ولا غنى جدول ولا انبجس نبع ولا أورق عود ولا اخضر ربع ولا أحصد زرع

يسيل فى الترب الماء فينقل أسباب الخصب والنماء إلى البذور المستكنة والأجنة المخبوءة فى باطن الارض، فتصاعد الجواهر المغذية محمولة فى مطاويه إلى سوق النبت وأزهاره وأوراقه وبراعمه وتسير فيه كل مسير، فيأخذ كل حاجته ونصيبه كفعل الجسم بالدم

ولولا الشتاء لحرمنا الربيع بوشيه وأفوافه وأنواره، والصيف وظلاله الندية ونسماته الرخية وغلاله الوفية، والخريف وما أنضج من ثمر شهى وفاكهة روية

وللشتاء جماله الرائع القوى: ففيه الغيوم تأخذ كل شكل وتلوّن كل لون وتسير متلاحقة مطّردة، تارة مسرعة وأخرى وئيدة، تشق عباب الجوّ كالسفين المثقلة. وهى تجتمع فى الجو لتفترق، وتفترق لتتجمع، فهى حيناً جميعة وهى حينا الشملُ شتيت، وآناً هى مسفّة حتى لتدخل من النوافذ وتتطفل على الناس فى مخادعهم واسرتهم، وآونة تسمو وتشيل فى كبرياء وأنفة حتى لتكاد تحسّ بأنها تبغى الى الشمس سبيلا.

والغيم رمز الأمل القوى والعزم الفتى، فهو أبداً متجدّد وهو أبداً يسير، وأبداً يستهدف المرامى البعيدة والآفاق القصية، ولن يصدّه عنها سهل ولا وعر. وهو كلما وصل أفقاً وبلغ غاية استهدف أفقاً آخر جديداً الى أن يفنى كفناء الأمل بفناء العمر الذى يضع الحدود ويقيم السدود للآمال والأمانى الانسانية.

وفى الشتاء السيلُ المترع والموجُ المصطفق والنهر الزاخر، وفيه الثلج يكسو الأرض حلّة نقيّة من أديم الشمس هى لولا برودها. وفيه الجليد كالثريات المدلاّة حيناً، وحيناً كصفحة السماء، فى الزرقة والاستواء، وحيناً آخر تراه فتخاله هشيما من البلور النقى الصفيق. وفيه الندى مسلوكا عقوداً من اللؤلؤ فى خيوط الزرع وتباشير النبت. وفيه الضباب يضيّق الافق ويقصّر أمد الابصار فترة، فيكون للأبصار كالحمية للأجسام يعطيها فرصة للاستجمام من ألم النظر البعيد! وفى الشتاء البروق الخواطف والرعود القواصف والرياح العواصف. وكل هذا فيه جمال القوة وجمال الروعة، وهما كجمال الهدوء والاعتدال

لازمان لرياضة العواطف وحياة الشعور . وإن يكن فى فصول العام مايُرينا عظمة الخالق وجبَروته ففصل الامطار هو أوّل هذه الفصول . ولا يذكر الناس الله ويخشعون أمام سطوته خشوعا صادقا إلاّ فى فصل الشتاء حينما يعود إلى الاذهان ذكر الطوفان الذى أغرق قوم نوح ، وحينما يشتد قصف الرعد وهزيمه فتزلزل الأرض زلزالها ، وتوشك أن تخرج أثقالها كيوم الحشر .

والشتاء فى أوّل عوامل التعمير والبناء فى صرح الاجتماع ، فلولا الشتاء لمـا كان الموقد ، ولولا الموقد لمـا كانت الأسرة أو لتأخرّ نشوؤها أمداً طويلا ، ولولا الأسرة ما كانت قبيلة ، ولولا القبيلة ما كانت دولة ولا مملكة . فأنت ترى أنه لولا الشتاء وضرورة اجتماع الافراد حول النار للاصطلاء وطلب الدفء ، لظل نشوء الاسرة رهناً بحوادث وظروف أخرى طارئة قد تقع وقد لاتقع .

وفى الشتاء يقل الاجرام قلة ملحوظة ، وذلك أن الناس يقلّون من الغدوّ والرواح ويعتكفون فى بيوتهم مما لا يهيء للصوص فرصا عديدة للسلب والنهب . وفيه كذلك يسمو مستوى الحياة العائلية . فالأب يرى بنيه وزوجه ، يخالطهم ويباسطهم ويقيم بينهم وقتا أطول ، فلا الزوجة ساهرة مسهّدة ، ترقب دامعة العين و القلب أوبة الزوج من إحدى زوراته الليلية ، ولا البنون يلتمسون حنوّ الأب وعطفه عليهم ورعايته لهم وانتباهه إليهم فلا يجدونها ، ولا العاشق المفتون ييُسَّر له كل اليُسر أن يتسوّر على الناس الدور ليسطو على الأعراض ويلغ فيها ويفسد

وفى الشتاء تقلّ الضوضاء ولا يقطع على الناس فى الليل وأطراف النهار هدوءهم لغط الباعة وهرجهم وصراخهم وضجيجهم فى الشوارع والأزقة وأمام الدور والمدارس والمستشفيات وفى كل محل تجوس خلاله أقدامهم

هذا ويعلّم الشتاء الناس الحذر والحيطة ، فلا يُجدى معه أن تهمل لباسك أو تهمل أمور بيتك أو تهمل استشارة الطبيب أو تغامر فى الأدلاج والسير فإنه على خلاف بقية الفصول ، سريع حاسم فى عمله ، ولا يدع لك فرصة للمطل والمراوغة وترك التبعات المفروضة عليك نحوك ونحو بنيك وذويك .

ويعلّمنا الشتاء بتقلبُه واختلاف وجوهه وقوة تنبيه دراسة الطبيعة وحسن الاستدلال بالأمائر والإشارات على حال الجو من دفء أوقرّ أو إمطار أو انحباس وخلافها . والبـدوى أسرع الناس استدلالاً وأسوغهم معرفة وأصدقهم فراسة بشؤون الجو ، لان للشتاء عنده من المعانى غير ماله عند الحضرى وساكن المدينة

ومن أنعُم الشتاء على الناس وفضله العميم أنه يحجب عن الأبصار كثيراً من مشاهد القبح والتشويه المغثية مما تقذى به العيون ، وأنه يحجب كذلك الكثير من مظاهر الفتنة والجمال والاغراء

وقد تقول محتجّا ومعارضا : نستطيعُ أن نفهم ونسيغ أن يكون من فضل الشتاء على الناس وخيره العميم أنه يحجب عنهم مظاهر القبح فيمن حُرموا الجمال بما لا بدّ أنهم مخبّئوه من أجسامهم الشوهاء المضطربة بما يلففون به أنفسهم من أردية وأكسية ثقيلة ، حتى لا يكاد يبدو الاضطراب والتشويه . قد تقول : إننا نستطيع أن نُسيغ هـذا ونفهمه ، ولكن كيف نفهم أن يكون إخفاء الحسن والجمال والفتنة من أنعم الشتاء عندنا وفضله العميم علينا ؟

وأجيب : إنك بلا ريب تحمد للشتاء أنْ يُخفى عنك الفرو الغزير حول العنق فتنة الجيد العاجى ، وما يصله بأعلى الصدر من نحر يُطلّ عليك إطلالةَ الفجر . وتحمد للشتاء أن يخفى عنك بالمعطف الثقيل والدثار الكثيف والصوف الخشن الصدر الناهد البض ، والترائب المصقولة والاعضاء المملوءة ، والرداء الشفّ يخفى شيئاً ويُبدى أشياء فتكون الفتنة ـ وايم الله ـ أشدّ من فتنة العرى الكامل ! ! وتحمد للشتاء أنه يُخفى عن عينيك ضمور الخصر وهيف القد والساقين لفرط انسجامهما لاتدرى أهما إلى الربالة والامتلاء ، أم هما إلى الدقة والنحافة . ستحمد للشتاء كل أولئك لانك تحب ان يثوب إليك رشدك والعازب من لبك ، وتحب أن تنقطع شيئاً آهاتك وتغيب حيناً مثيرات الحرمان والحسرة فى فؤادك .

أفبعد هذا لا نصوغ للشتاء عقود المدح والثناء ، ونردد قول الشاعر : « سلام الله يامطر عليك » . سواء « أعنى الشاعر مطر السماء أم عنى اسماً من الاسماء ؟ !

بلى ، سلام وألف سلام ياشتاء !

أديب عباسى

١١ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

محبة القريب

إنكم لتعطفون على القريب، وتعبرون عن عطفكم بتزويق الكلام، أما أنا فأقول لكم إنّ محبتكم للقريب إنْ هي إلا أنانية مضللة.

إنكم تلجأون للقريب هرباً من أنفسكم، وتريدون أن تعدوا هذا العمل فضيلة، وهل يخفى عليّ كنه تجردكم هذا؟

إن المُخاطَب أقدم من المتكلم، فالأول مقدس أما الثاني فلم يقدّس بعد. ذلك هو السبب فى عطف الإنسان على قريبه.

إن ما أشير به عليكم هو أن تنفروا من القريب لا أن تحبوه لتتمكنوا من محبة الإنسان البعيد، فان ما فوق محبة القريب محبة الإنسان البعيد المُنتظَر، وإنى أضع فوق محبة الإنسان محبة الأشياء والأشباح.

إن الشبح الذى يعدو أمامك، ياصديقى، لهو أجمل منك، فلماذا لا تعيره لحمك وعظمك؟

لقد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون إلى القريب. لا قبل لكم باحتمال أنفسكم وما حبكم بالحب الكامل، لذلك أراكم تطمحون إلى إغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله.

أتمنى أن تنفروا من جميع فئات الأقربين ومن جيرتهم أيضاً لتضطروا الى إيجاد الصديق الذى يطفح قلبه بالاخلاص. إنكم لتدعون شهوداً عند ما تريدون أن تغدقوا الثناء على أنفسكم، وإذا ما توصلتم إلى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدأون حينئذ بإحسان الظن بأنفسكم.

ما من أحد يرتكب الكذب إلا إذا تكلم ضد ضميره؛ فأصدق الناس من لا ضمير له يحول دون قوله الصدق. على هذه القاعدة تتكلمون عن أنفسكم بين الناس لتضللوهم فى حقيقتكم.

يقول المجنون فى نفسه: (إن مخالطة الناس تفسد الأخلاق، بل هى تفسد بخاصة من لا خلاق لهم)

إن منكم من يهرع الى جاره ليفتش عن نفسه، ومنكم من يذهب إليه لينساها. انكم تسيئون محبة أنفسكم، لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجن لكم.

إن الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب، لأن خمسة يجتمعون منكم يقضون دائماً على السادس الغائب.

إننى لا أحب أعيادكم، إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت النظارة أبرع منهم تمثيلاً.

لا أدعوكم إلى محبة القريب، بل أدعوكم إلى محبة الصديق. فليكن الصديق لكم مظهر حبور الأرض، فتحسون بما ينبئكم بالانسان الكامل.

أوصيكم بالصديق يطفح قلبه إخلاصاً؛ غير أن من يطمح إلى الظفر بمثل هذا القلب يجب عليه أن يكون كالاسفنجة قادراً على تشرّب السائل المتدفق. أوصيكم بالصديق الذى يحمل عالماً فى نفسه، فهو الصديق المبدع الذى يسعه أن يقدم لكم هذا العالم فى كل حين، فيعرض عليكم ما مرّ به من عبر الحياة، فتشهدون كيف يتحول الشر إلى خير، وكيف تنتهى الصدف بكم إلى غاياتكم.

ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو إليه فى يومك، فتحب فى صديقك الانسان الكامل، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك.

لا أشير عليكم بمحبة القريب أيها الاخوة، بل محبة الآتى البعيد.

هكذا تكلم زارا . . .

طريق المبدع:

أتقصد العزلة يا أخى لتجد الطريق التى توصلك إلى مكمن ذاتك؟ إذن، فقف قليلا فى ترددك واصغ إلىّ:

لقد قال القطيع: (من فتش فقد تاه، ومن انعزل فما أمن العثار).

وأنت قد عشت طويلا بين هذا القطيع، ولسوف يدوى صوته ملياً فى داخلك. فاذا قلت له: ـ لقد تغير ضميرى جانحاً عن ضميرك ـ فلن تكون إلا شاكياً متألماً.

إن اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم، وآخر وَهَجٍ من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب فجيعتك فيجددها. ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك لأنه يقودك إلى التوغل في ذاتك، فأين برهانك على حقك في المضي إليها وعلى انك قادر على هذا السفر. أفأنت قوة جديدة وحق جديد؟ أأنت حركة ابتداء؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها؟ أبوسعك أن تجعل النجوم تدور حولك؟

لَـكَمْ من طموح يتحفز نحو الأعالي، ولكم من طمع يرتعش في أمانيه، فاثبت لي أنك لست من الطامحين الطامعين.

إن كثيراً من ساميات الأفكار لا تعمل إلا عمل الأكر المنتفخة فلا تكاد تتضخم حتى يحكمها الضمور.

إنك تدعو نفسك حراً، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك. ولا تكتف بقولك إنك خلعت نيرك. فهل كنت ياترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم.

لايهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها

هل بوسعك أن تسنّ لنفسك خيرها وشرها فترفع إرادتك شريعة تسود أعمالك. أبوسعك أن تكون قاضياً على نفسك وأن تكون منتقماً منها لشريعتك؟

إنه لأمر مريع أن يبقى الإنسان منفرداً مع مَنْ أقامه قاضياً عليه ومنتقماً منه بالشريعة التي أوجدها. إن مثل هذا الإنسان ليذهب في الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفاً إلى فراغ الوحدة وصقيعها.

إنك وقد أصبحت منفرداً لاتزال تتألم من المجتمع لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للأمل مرتع فيك. غير أنك ستتعب من انفرادك يوماً، إذ تلين قناتك، وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلا. إنني أصبحت وحيداً فريداً

سيأتي يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فتلتصق صغارتك فيك حتى لترتجف فرقاً من تساميك نفسه إذ يبدو أمامك كشبح مرعب فتصرخ قائلا (كل شيء باطل)

إن في المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه، فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت. فهل أنت مستعد لارتكاب جريمة القتل؟

أتعرف، يا أخي، معنى كلمة الاحتقار، وما ستكون آلامك إذا أنت أردت العدل واضطررت إلى الاقتصاص ممن يحتقرونك؟

انك تُكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك، فتثير حفيظتهم عليك. لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم، فهم لذلك لن يغتفروا لك.

لقد تفوقت عليهم، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغاراً في أعين الحاسدين. وما كره الناس أحداً كرههم للمحلق فوق السحاب.

لقد وجب عليك أن تقول للناس: — إنني اخترت ظلمكم نصيباً حق لي منكم، لذلك عز إنصافي عليكم. إن الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب، ولكنك إذا كنت تريد أن تصبح كوكباً فعليك أن ترسل أنوارك حتى إلى الراشقين.

واحترس بخاصة من أهل الصلاح والعدل لأنهم يتوقون إلى صلب من يوجد فضيلة لنفسه. إنهم يكرهون المنفرد.

واحترس أيضاً من السذاجة المتقيّة، لأنها ترى الكفر في كل إنسان لايلتصق بها. وقد كان الساذجون في كل زمان يتوقون إلى إيقاد النار واللعب بها.

كن على حذر من التطرف في حبك، فان المنفرد يمد يده متسرعا لمصافحة من يلتقي في طريقه. إن من الناس من يجب عليك ألا تمد إليهم يداً، بل مخلباً ناشباً.

غير أن أشدّ من تصادف من الاعداء خطراً إنما هو أنت وما يترصدك في المغاور والغابات إلا نفسك.

لقد تبيّنت الطريق الذي يقودك إلى ذاتك. أيها المنفرد، وطريقك منبسط أمامك وأمام شياطينك السبعة. فتصبح منذ الآن جاحداً لنفسك، ساحراً مجنوناً، مشككا كافراً شريداً. فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك إذ لا يمكنك أن تجد مالم تشتعل حتى تصبح رماداً.

إنك تتبع طريق الخالق، أيها المنفرد، فأنت تفتش على إله لك تقيمه من شياطينك السبعة. إنك تتبع طريق العاشق، أيها المنفرد، وقدعشقت نفسك، فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين.

يريد العاشق أن يبتدع لأنه يحتقر، وما له أن يدّعى الحب إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب .

توغل فى عزلتك، ياأخى. سِر فلا رفيق لك إلا حبك وإبداعك. إنك ستسير طويلا قبل أن تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة .

اذهب إلى عزلتك فأنى أشيعك بدموعى يا أخى، لأننى أحب من يتفانى ليوجد فى فنائه من يتفوّق عليه .

هكذا تكلم زارا

الشيخة والفتاة

لماذا تدلج مختفياً فى الغسق يازارا ؟ وما هو الذى تخفيه بكل احتراس تحت ردائك ؟ أكنز وُهِبْتَه أم طفل رُزِقته ؟ وإلى أين تتجه على طريق اللصوص ياصديق الأشرار ؟ ،

فاجاب زارا : — والحق يا أخى ، أن ما أحمل إنما هو كنز وُهِبتُه ، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل ، ولولا أننى كممت فمها لصاحت بملء شدقيها .

بينما كنت أسير اليوم منفرداً فى طريق عند الغروب ، التقيت بشيخة ناجتنى قائلة : —

لقد كلّمنا زارا مراراً نحن النساء ، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة .

قلت لها : — يجب ألا يتكلم عن النساء إلا للرجال .

فقالت : — لك أن تتكلم أمامى عن النساء لأننى بلغت من العمر أرذله فلن تستقر أقوالك فى ذهنى .

وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها : — كل ما فى المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز إلاّ مفتاح واحد وهو كلمة (الحَبَل)

ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة ؛ أما غايتها فهى الولد ، ولكن ما تكون المرأة للرجل ياترى ؟ إن الرجل الحقيقى يطلب أمرين : المخاطرة واللعب ؛ وذلك ما يدعوه إلى طلب المرة ، فهى أخطر الألعاب.

خلق الرجل للحرب ، وخلقت المرأة ليسكن الرجل اليها ، وما عدا ذلك فجنون ، ولا يحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها ، فهو لذلك يتوق إلى المرأة لأنه يستطعم المرارة فى أشد النساء حلاوة

تفهم المرأة الطفل باكثر مما يفهمه الرجل ؛ غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة ، ففى كل رجل حقيقى يحتجب طفل يتوق إلى اللعب . فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل فى الرجل .

لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر .

ليتوهج الكوكب السنى فى حبك أيتها المرأة ، وليهتف شوقك قائلا : لأضعن للعالم الانسان الكامل . ليكن فى حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام من يثير الوجل فى قلبك . ضحى شرفك فى حبك ، وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيراً ؛ غير أن الشرف فى حبك هو الخلق الذى يجعلك تبادلين المحبة باكثر منها فلا تنحدرين إلى المقام الثانى

ليحذر الرجل المرأة عند ما يستولى الحب عليها ، فهى تضحى بكل شىء فى سبيل حبها ، إذ تضمحل فى نظرها قِيَمُ الأشياء كلها تجاه قيمته ، ليحذر الرجل المرأة عند ما تساورها البغضاء ، لأنه إذا كان قلب الرجل مكمنا للقسوة ، فقلب المرأة مكمن للشر

إلى من توجه المرأة أشد بغضائها ؟

والجواب فى قول الحديد للقوة الجاذبة :

— إن أشد كرهى موجه إليك لأنك تجتذبين ولا طاقة فيك لتربط على ما تجتذبين .

إن سعادة الرجل تابعة لارادته ؛ أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل .

تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم : لقد اكتمل العالم .

ولا بد لها أن تخضع وأن ترى أعماقا على سطحها ، لأن روح المرأة سطحية ، فهى صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح ، فى حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها فى المغاور السحيقة القرار ؛ وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها

عندئذ قالت العجوز : لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة أجدر بسماعها من النساء من لم يزلن فى مقتبل العمر . ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عند ما يتكلم عن النساء وهو لا يعرفهن إلا قليلا . أفتكون إصابته ناشئة عن أن ليس فى حالة المرأة شىء ممتنع

والآن اصغَ إلىّ يا زارا ، فانى سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافأة على ما قلت ، وكبر سنى يجيز لى أن أعلنها لك ، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك

فقلت هاتها ، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة . وهذا ماقالت العجوز : —

— إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط .

هكذا تكلم زارا . . .

(يتبع) فليكس فارس

شاعر الطبيعة (1)

للسيد عمر أبو ريشة

شاخص الطرف محدق في الفضاء   فوق طود عالي المناكب ناء
يرقب الفجر والندى مالئٌ بُر   دَيه والشعر مائج في الهواء
شاعرٌ خافق الجوانح بالحب   بعيد عن عالم الضوضاء
تترامى في وجهه الهادئ الوا   جم آي الوداعة الغرّاء
وبعينيه بارقٌ قذفته   شعلة الروح مبهم اللألاء !
نهض الفجر مثقلاً يتلوّى   فوق صدر الطبيعة الخرساء
يتخطّى الربى وئيداً ويهمي   بشتيت الأظلال والأنداء
وثبةٌ إثر وثبة ذائب الألـــوان فيها وجامد الأضواء
فارتدى الكون بردةً من جمال   وتهادى بياسم النعماء
فإذا السفح باسم تمرح القطـــعانُ فيه وترتعي بهناء
وإذا الطير بين كرّ وفر   من غدير لروضة غناء
صورٌ أفرغت على أذن الشا   عر نجوى علوية الإيحاء

***

هبط السهل والهجيرة تنقضّ   وتطوي مطارف الأفياء
وتصبّ الخمول والسأم الصاخـــب والصمتَ في فم الغبراء
وتردّ الجمال منهتكَ الستر   سليب النعومة العصماء !
وتسلّ النشاط من قبضة الكو   ن فيغفو على ذراع الفناء !
فصدور الحقول متعبةٌ تلـ   هث في غمرة من الإعياء !
ورءوس الأزهار مطرقة تنـ   سلّ منها انتفاضة الكبرياء !
وقيان الغصون مَلْويّة الأعـــناقِ صرعى كآبة عمياء ...
صورٌ أفرغت على أذن الشا   عر نجوى علوية الإيحاء !! ..

***

بلغ المنحنى .. فجاز مدى الطر   ف بحسٍّ مفجّع الأنباء !
مأتمُ الشمس ضجّ في كبد الأفـــق وأهوى بطعنة نجلاء
عصبت أرؤس الروابي الحزانى   بعصاب من جامدات الدماء !
فأطلّت من خدرها غادة الليـــل وتاهت في ميسة الخيلاء
وأكبّت تحلّ ذاك العصابَ   الأرجواني باليد السمراء !!
وذؤابات شعرها تترامى   في فسيح الآفاق والأجواء
وعيون السماء ترنو إليها   من شقوق الملاءة السوداء !!
فإذا الكون لجّة من جلال   فجّرتها أصابع الظلماء
يرسب الطرف في مداها ويطفو   ثم يرتد فاقد الارتواء
فتطلّ الأشباح من كوّة الوهم   وتعوي مجنونة في العراء
وتموج الأصداء من جهش الأر   ض بأذن المهابة الصماء
وتحس الروح الوديعة بالرع   شات تسري كموجة الكهرباء !
صور أفرغت على اذن الشا   عر نجوى علويّة الإيحاء !!

***

هكذا استعرض الوجود مليًّا   في غضون الإصباح والإمساء
في اختلاج البروق في قهقها   ت الرعد في صاخب من الدأماء
في ابتسام الرياض في هدأة الجد   ول في نفحة الربى الفيحاء
فانثنى ضاربا على الوتر الشا   دي اهازيج روحه الشماء !
فضّ فيها عن الحياة نقابا   من خداع وبرقعا من رياء !
ورمى ختم سرها فتجلت   بعد لأي عريانة للرائي !
فتهادت بناتها باصطفاق الص   نج والدف واتساق الغناء
كدُمى هيكل لقد نفض الله   عليها اختلاجة الأحياء !
يتمايلن راقصات نشاوى   بدلال مفجر الإغراء !
فمن الخصر عطفة تركت في   حلمة النهد نفرة للعلاء
كل بنت جياشة الصدر ترمي   أختها بابتسامة استهزاء
هذه في يمينها مشعلُ الحب   قصير الأنفاس خابي السناء
هذه في عيونها تصرخ الشهـ   وة جوعا وتزدري بالحياء
هذه فوق رأسها تشرق الحكـ   مة في شبه هالة وضاء !
هذه .. خلّ هذه ، ودع الأخـ   رى فصعب إصابة الإحصاء
زمر من كواعب برزت في   صور العيش في أتم جلاء ! ..
عزف الشاعر النبيغ فجسّت   أكبدَ الراقصات كف العزاء
مسنداً رأسه على كتف القيـ   ثار مستسلماً إلى الأهواء
وإذا ماصحا على نفخة البو   ق بأذنيه وازورار القضاء ..
خدرت كفه على الوتر الشا   دي وسالت أصداؤه في الفضاء
وتلاشت تلك الحسان تلاشي الـ   شمع في زفرة اللظى الحمراء
وهوى فوق مضجع من تراب   تحت عطفي صفصافة غناء !!

حلب   عمر أبو ريشة

(1) من ديوان (شعر) الذي صدر حديثا

الفنون

اكروبوليس أثينــا

AKROPOLIS - ATHENA

للدكتور احمد موسى

الجمال فى هذا الوجود كثير، ولكنه ليس رخيصاً ؛ ولذلك كانت معرفته والاستمتاع به شأن فئة معينة من الناس . وكان من أهم ما نظرت إليه الجامعات الأوربية الحديثة وجوب تدريس مادة علم الجمال Aesthetik ضمن دراسة الفلسفة ، ومادة تاريخ الفن العام وعلم الآثار بعد إكمال دراسة التاريخ والجغرافيا ؛ فبالأولى نتمكن من معرفة الجمال بقواعد تؤدى إلى ترقية حواسنا وتهذيب تقديرنا ، وتقريب استمتاعنا من الكمال ، وما ينبنى على هذا كله من تمهيد السبيل إلى إكمال سلسلة التطور الفنى والوصول بها إلى الغاية المقصودة دون ركود أو انحطاط . وبالثانية نسجل ماضى الفن تسجيلا علمياً نقيس به الحضارات ونعمل على ربط الحاضر بالماضى وبالمستقبل فيكون التطور طبيعيا والتقدم منتظراً

وإذا رجعت إلى حضارة أى شعب أو أمة ، وجدت أن الآثار والفن من أهم مواد التسجيل لمقياس مدى هذه الحضارة ؛ فكأننا بدراساتنا هذه نقصد الوصول إلى معرفة الوسائل التى بها نستطيع تكوين حضارة حقيقية ترجع فى جوهرها إلى معرفة نواحى الجمال الفنى ، فضلا عن الاستمتاع واللذة نتيجة صدق التقدير .

وإذا نظرنا إلى مصر وجدنا أن الفن فيها عظيم ، وأن الطبيعة منحتها الكثير من جمالها ، ومع هذا يجهل كثير من أبنائها ما فيها منه ، وليس جهلهم هذا نتيجة مباشرة لجهلهم العام دائما ، ولكنه نتيجة لاهمال مدارسنا لعلم يعد اليوم من أهم العلوم الدراسية فى أوروبا التى نأخذ عنها الكثير .

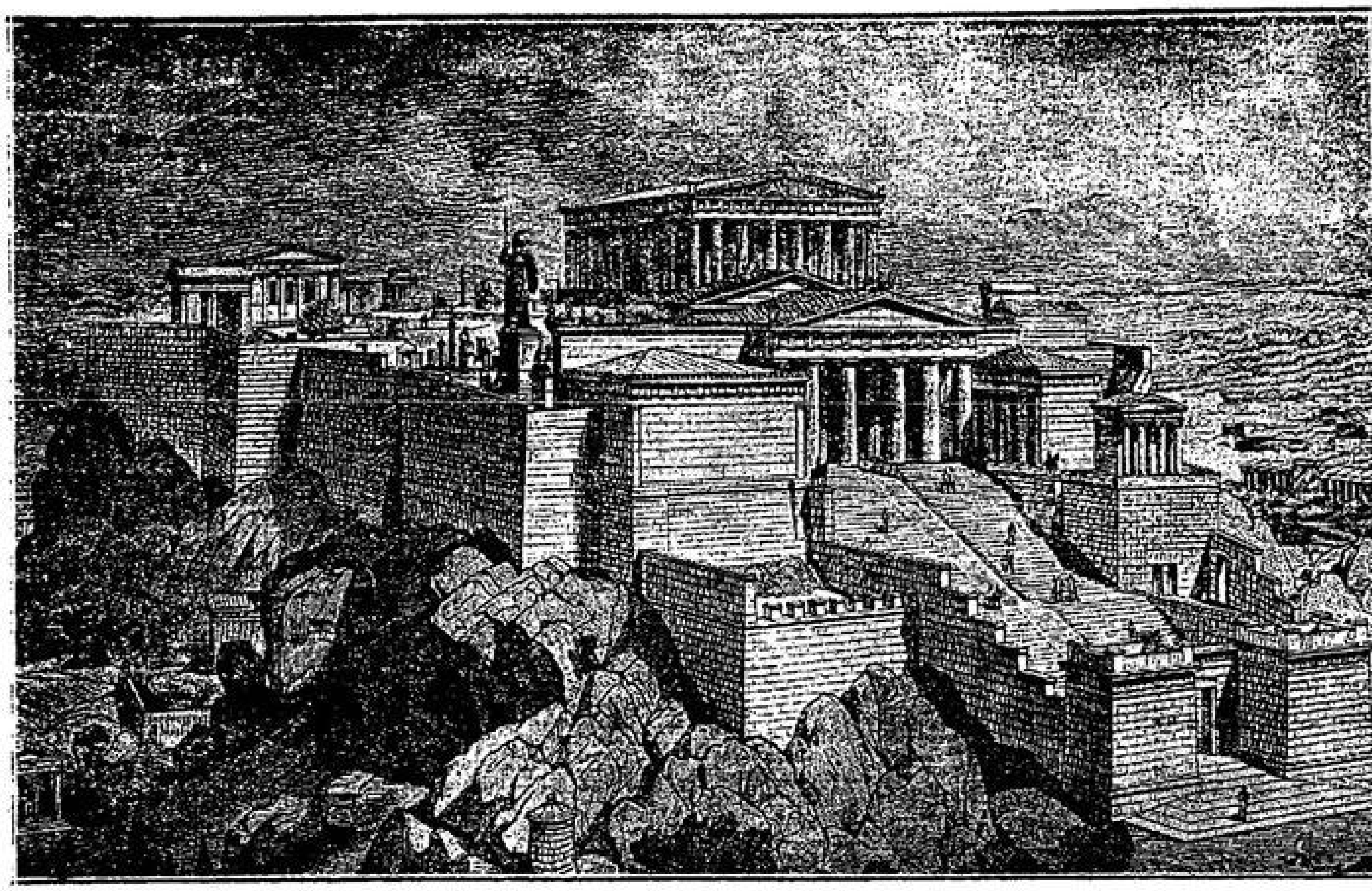
والظاهر أننا بحسب مولدنا والبيئة التى نشأنا فيها قليلو التأمل فيما نراه - وأثر ذلك واضح فى كثير من تصرفاتنا العامة حتى فى مطالعتنا ، ترانا نقرأ ما نقرأ بطريقة أوتوماتيكية خالية من الأخذ والرد تبعدنا غالبا عن الاستمتاع .

وإذا نظرنا إلى الطبيعة فاننا قد لا نستطيع أن نتذوق ما يسميه الغير جمالا ؛ وإذا شاهدنا معبدا أو كنيسة أو جامعا أو صورة صعب علينا التعرف على ما فيها من سر الجمال والإنشاء .

وإذا كان من نصيب البعض زيارة متاحف أو معارض فنية ، وكان من شأنه وصف ما شاهد ، أو نقد ما عاين ، أو تكوين رأى شخصى ، تراه لا يخرج فيما يكتبه أو يقوله أو يقرره عن مديح وإطراء أو ذم وتقليل ليس فيه قيمة دراسية تعود على القارىء أو المستمع بأى تثقيف أو فائدة ، بل على النقيض من ذلك قد تضر استعداده الفطرى وتنقص منه ؛ وذلك ما حدا لى فى الواقع إلى الاتصال بالأستاذ الكبير رئيس تحرير هذه المجلة ، بقصد التحرير فى تاريخ الفن وتاريخ الآثار إجمالا ، حتى أستطيع بذلك أن أقدم للقارىء تعاريف إجمالية تكون خلاصة هذه الدراسات ، إذ بها يمكن اكتساب المعرفة الحقة لعلمين مهمين يؤديان بنا إلى التعرف على ما فى حياة الانسان من تراث فنى مجيد ، ويكسبنا ناحية من الاستمتاع قد لا يمكن الوصول إليها دون المعرفة الدراسية ولا سيما وبيئتنا لا تزال تخلو من هذا النوع من التثقيف .

وقد فكرت كثيرا فى الخطة التى يمكننى السير عليها ، ووجدت أن من الملائم للقراء وجمهرتهم من الأدباء والمثقفين ، ألا أنحو نحواً مدرسياً بحتا قد يمل القارىء ، فترانى مرة أكتب عن روبنز وأخرى عن جويا وثالثة عن رمبراندت ، ثم ترانى أنتقل فجأة إلى اكروبوليس أثينا ، مع أن الصلة المدرسية أو المنهجية بين هذه المقالات وبعضها مفقودة تماما ؛ كما أنى لم أعرج على الفن المصرى أو الاسلامى بعد ، ولكنى أتعمد هذا الاعراض مؤقتا ، كما أتعمد الانتقال المفاجىء لأمرين : أولهما تشويق القارىء كل مرة بقراءة شىء جديد مخالف لسابقه ؛ وثانيهما إعطاء الفكرة العامة عن ماهية تاريخ الفن وتاريخ الآثار فى أبسط عبارة تؤدى إلى معرفة وسائل القياس بواسطة الفن المقارن ، وبذلك تكمل حواسنا ، وندرك الجمال على الوجه المتقدم .

على أنه إذا كان ولا بد من جعل الدراسة منتظمة ، فهذا ما سيكون بطبيعة الحال فى النهاية ؛ إذ يمكن عندئذ ، بعد عمل ترتيب بسيط ، جمع فنانى كل مدرسة على حدة ، ووضعهم معاً وضعاً تاريخيا ، وهذا الترتيب يمكن إجراؤه فيما يتعلق بتاريخ الآثار أيضا .



(ش ١) منظر عام لاكروبوليس اثينا — وفيه يؤدى السلم إلى مدخل بروبولين وخلفه على اليمين معبد بارتنون

واليوم أقدم إيضاحاً عن اكروبوليس أثينا الذى يعتبر آية من آيات الفن القياسى ، إلا أنى مضطر للأشارة إلى تاريخ أثينا نفسها قبل الدخول إلى اكروبوليس اضطرار من يريد تاريخ الأزهر مثلا ، فيعرج على تاريخ القاهرة وعلى ما كان لها من الشأن أيام إنشائه

كانت اثينا من ناحية حضارة الاغريق مركز الحياة اليونانية ، وكانت من الناحية السياسية من أهم بلاد الاغريق حينا ، وعاصمة لها حيناً آخر .

قامت هذه المدينة على مرتفع أكسبها بروزاً هاماً فى مقاطعة أتيكا Attika بين نهيرى اليزوس وكفيزوس وعلى بعد خمسة كيلومترات من شاطئ البحر وسبعة كيلومترات من ميناء بيريوس . يرجع إنشاؤها إلى الملك ككروبس Kekrops الذى اختار لها هذا المرتفع لحسن ملاءمته . ثم أقيم مكان هذه المدينة بناء قلعة اكروبوليس الذى خصص للحفلات الدينية والحربية فى عصر الحضارة الاغريقية ، بعد إصلاح الأرض وتسطيحها ثم إحاطتها بسور عال من كل الجهات (ش ١) فكان بذلك أهم بناء فى أثينا ، وقد جعل المدخل فى الجهة الغربية للمرتفع مكونا من مداخل بعضها خلف بعض لتعزيز الوصول إلى اكروبوليس ، ولامكان عمل الرقابة اللازمة عند الدخول إليه أو الخروج منه ، وسمى هذا المدخل فى ذلك الحين بلاسجيكون نسبة إلى ما يقال من أن مؤسسيه كانوا البلاسجر (ش ٢)

وفى داخل المرتفع المحاط بالسور سكن ملوك هذه المنطقة من أتيكا ، وبجوار تمثال الآله زويس Zeus بنى معبد هيكا تومبيدوس Hekatompedos وهو أقدم المعابد ، وفيه أقيم تمثال أثينا بولياس وتمثال الآله ارشتايوس وعلى اسمه بنى بعدئذ معبد ارشتايون ، وتمثال بوزيدون اله البحر والزلازل .

كثر سكان أثينا وزحف جزء منهم تدريجياً إلى جنوب وغرب المرتفع ، فكان أمام المدخل وعلى بعد مناسب منه أول سوق تجارية

ونظراً لاتحاد سكان أتيكا وتكوينهم مقاطعة متحدة الأطراف عملا بأرادة الملك تيسيوس Theseus ، اتسعت دائرة المدينة وزادت قيمتها الاجتماعية والسياسية فأصبحت العاصمة .

أما السكان الذين زاد عددهم كثيرا عن قبل فقد امتدوا بمساكنهم إلى الأطراف خصوصاً إلى الجزء الشمالى الغربى ، حيث سكن صناع الفخار ، ولذلك سمى هذا الموقع حى الفخارين (Cerameikos)

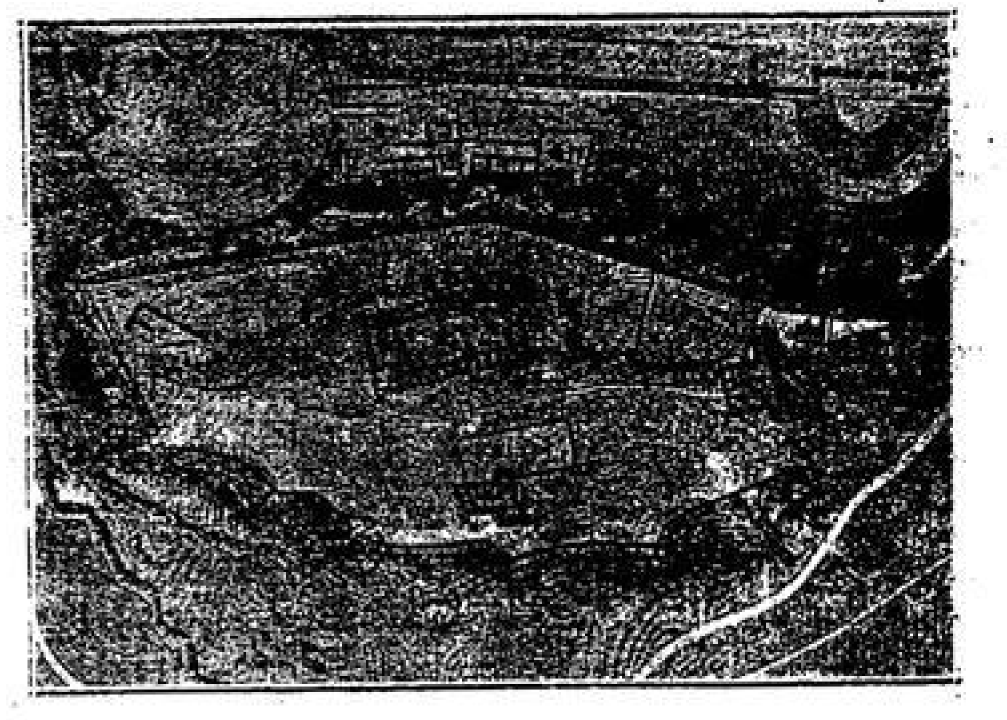
اشتغل الفنان بيسستراتوس Pisistratos وأولاده بتجميل المدينة مبتدئين بالجزء الشمالى الغربى منها ، فبنوا هيكلا شمل الاثنى عشر إلهاً ، كان بوضعه ملتقى الشوارع التى أنشئت وتقاطعت عنده .

ثم ابتدأ بيسستراتوس وأولاده أيضا فى بناء معبد زويس الأولمبى بالطرف الجنوبى الشرقى وسموه معبد ألمبيون Olympieion ، على أن بناءه لم يتم إلا بواسطة هدريان Hadrian ، كما أنهم أضافوا إلى مبانى معبد أثينا القديم مدخلا مكونا من أعمدة أقيم فى أعلاها إفريز

رسومات شملت تماثيل تبين مواقع حربية ؛ أما المدخل العام للمرتفع فأنهم أدخلوا عليه كثيراً من التحسينات البنائية ، فأصبح مدخلا فخماً بكل معانى الكلمة .

ولم يترك بيسستراتوس البئر الموجودة بالسوق القديم دون تجميل ، فبنى حولها بناء ظاهراً ، كما بنى بالجهة الشرقية دائرة ليكايون Lykeion لتقديس أبولون ؛ على أن بناءها لم يتم إلا بواسطة بركليس . وقد تحولت هذه الدائرة فيما بعد إلى جمنازيوم أقيمت فيه الحفلات الرياضية منذ أيام الحاكم ليكورجوس Lykurgus .

وبعد ثورة تيرانيس Tyrannis وانتصار الديموقراطية بواسطة كلايستينس Kleisthenes فى نهاية القرن السادس قبل المسيح أصبحت أهمية اثينا عظيمة وقيمتها الاجتماعية أعظم .



(ش ٢) خريطة تبين اكروبوليس اثينا وعلى الجهة الغربية منه مدخل اروبولين وفى الجنوب الأوسط معبد وارسو

وبعد عام ٥٠٠ ق . م . أقيم مكان خصص للرقص فى الموضع المخصص للاله ديونيزوس Dionysos فى الجنوب الشرقى للمرتفع تطل عليه أماكن صنعت من الخشب لمشاهدة تمثيل المناظر الدراماتيكية التى مثلت أيضا فى هذا المكان .

ظل الحال كذلك حتى جاء الفرس محاربين (٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م) فدمروا المدينة وهدموا معظم مبانيها . وكانت فترة إقامتهم قصيرة ، فعاد الأثينيون إلى أثينا نشطين ، وأخذوا يعيدون الحال إلى ما كانت عليه مبتدئين ببناء سور جديد بطول ثمانية كيلو مترات .

وواصل المهندس تيميستوكليس أعماله البنائية بميناء بيريوس وهى التى بدأها قبل الحرب الفارسية ، ثم انتقل إلى مواضع أخرى أنشأ عليها موانى أخرى غير بيريوس .

ابتدأ رؤساء المدينة بالاشراف على أعمال التاسيس والبناء ، وأول ظاهرة لهذا اهتمام كيمون بتوسيع الجهة الغربية لمكان القلعة وبجوار مدخل اكروبوليس ، وذلك ببناء أكتاف عريضة أقيم على جزء منها ومن المسطح الأول معبد أثينانيكا Athena-Nike الذى اتخذ منه الأتراك عام ١٦٨٧ طابية لهم ؛ فتفككت أحجاره وتهدم ، وظل كذلك حتى أعاد بناءه المهندسان الألمانيان شوبرت وهانزن تحت إشراف العالم الأثرى لودفيج روس عام ١٨٣٥ .

وبنى بايسيانكس Peisianax أحد أقارب كيمون صالة رحبة على أجورا ، وصور الفنان بوليجنوت Polygnot لوحات زين بها هذه الصالة .

انتهت أيام كيمون وابتدأ عصر بركليس الذى يعد أهم عصور اثينا . فأنشأ الأودبون Odeion ثم التفت إلى تجميل اكروبوليس

وبنى اكتينوس Aktinos معبد بارثنون Parthenon (ش٢) وبعده قام البناء العظيم منيسيكليس Mnesikles ببناء المدخل الباهر للقلعة ، وهو المسمى بروبيلين Propylaen (ش ٢) .

هذا بيان موجز لنشأة اثيناوأكروبوليس وما أحاط بهما لم يكن منه بد .

للكلام بقية — **احمد موسى**

القصص

العبقرى الملعون

للكاتب الايطالى

چيوفانى پاپينى

ذهبت إلى براغ مرتين ولكنى لم أستطع لقاءه . ففى المرة الأولى لم أجرؤ على التطلع إلى بيته . وفى الثانية لم أهتد إلى منزله الجديد ، فقضيت ليلة فى تلك المدينة الغريبة أسائل الناس عنه وأنا مسوق إليه سوقى إلى المصير المحتوم .

لقد كنت فى تلك الليلة متشبعاً بكلامه وأفكاره حتى أخذت أحلم أحلامه وأغنى أغانيه وأتابع تيارات تفكيره وأتمثل نفسى أحد أبطال قصصه . لم أخضع لرجل من قبل كما خضعت لذلك الرجل الغريب الذى يزداد تأثيره فىّ يوماً بعد يوم حتى لم أعد أفكر فى أمل الخلاص منه . كنت أعتقد أنه أعظم رجل أنجبته أوربا . ففى فنه روعة « بو » وتهاويله ، وقوة نيتشه ووحدته ، وموسيقى شيلى وعذوبته ، وآلام « دستوفسكى » ومرارته . فيه حمرة الجحيم وزرقة السماء . فيه طلاقة الطفل وعبوس الشيطان ، ولكن شيئاً آخر كان خافياً علىّ هو عبقريته الفذة التى لم يكن يدركها أو يشرف عليها إلا القليلون . ولم تكن شهرته الذائعة التى نالها فى سنين قلائل إلا مجداً خالداً يشدو بذكره . لقد رماه الناس بالكبرياء والنفور ، ولكنهم لم يدروا شيئاً عن مؤلفاته ولم يحيطوا بأركان عبقريته . لقد أحببت قصصه إذ كانت كلها سيرة لشخصه من نسج غريب . تزأر أرواح أبطاله وتدوى بين أحزان الحياة ومخاوفها .

لم أستطع أن أكبت ذلك الإعجاب طويلا ، بل أحسست بدافع قوى لأن أراه وأتطلع إلى وجهه وأسمع كلمات تخرج من فمه . أردت أن أقرأ فى سطور وجهه تلك الآلام العاصفة التى صبها فى أبطال قصصه فوطنت العزم على لقائه . وقد ساعدنى على ذلك رجل فرنسى قادنى إلى بيته ، فدلفت إلى سلمه وقد ازدادت دقات قلبى شدة كلما دنوت من الطابق الذى كان يقطنه . وقفت أمام الباب وحاولت الكلام ولكن لسانى كان قد لصق بسقف حلقى فوقفت برهة أنظر إلى تلك اللوحة النحاسية المنقوش عليها اسمه فى حروف كبيرة سوداء فازددت هلعاً ورعبا . وأخيراً استجمعت قواى ومددت يدى إلى الباب أقرعه ، فجاءتنى خادمة تصف فى لباس أسود ، فهمست فى أذنها باسم ذلك الكاتب العظيم ، فقادتنى إلى ممر طويل ينبعث فيه نور ضئيل شاحب حتى وصلت إلى غرفة نظيفة قد أغلقت نوافذها وتدلت مصابيح الكهرباء فى وسطها ، فلمحت فى أحد جوانبها مكتبا صغيراً عليه دفتر كبير شبيه بدفاتر المحامين وقد كسيت الجدران بالخرائط والصور .

شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظرى على تلك الغرفة العادية التى لم تكن تختلف عن سائر الغرف ولا سيما وقد كنت أتوقع صومعة لقديس أو عريناً لأسد لا مكتب أحد المحامين ؛ فأخذت أسائل نفسى : أحقا هذا بيته وتلك غرفته ، أم أنا فى بيت أحد أقربائه ؟ ولكنى لم أطل التفكير فى هذا إذ رأيت أمامى رجلا ضئيلا قد أربى على الخمسين يحيينى بلغة فرنسية صحيحة ، فارتعت لمرآه . أيعقل أن يكون رجل أحلامى وأمانى هذا الرجل الضئيل الذى يرمقنى بعينين صغيرتين وتنفرج شفتاه عن ابتسامة هى أقرب إلى ابتسامات البله والسذج ؟ أيعقل أن يكون هذا الرجل الذى يرتدى ثوباً أسود ويضع يديه فى جيبه كما يصنع ضابط الاستيداع أو موظف المعاش ؟ ذلك الذى جعل قلبى يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبه ؟ وهل يمكن أن تكون تلك الأفكار العظيمة التى حيرتنى وجعلتنى أقطع الليالى ساهراً قد نبعت من ذلك الرأس الأصلع الصغير ؟ لم أكن لأصدق هذا ، بل كنت كلما أنعمت النظر فيه ازددت دهشة وعجبا ، حتى لم أستطع أن

أخفى دهشتى فقلت . أأنت الكاتب الذى أبحث عنه والشاعر الذى كتب « نفسى » و « الله » ، ومشاكل نصف الليل » ؟ فأجابنى فى هدوء وابتسام : نعم ، وكأنه لم يشعر أننى أهنته بسؤالى هذا فدعانى إلى الجلوس وسألنى حاجتى .

لم أكن أعرف مكانى ، ولم أكن أستطيع التفكير فى شىء أقوله ، فلاحظ على بعض هذا الارتباك فدنا منى متلطفاً وقال : أراك أحد المعجبين الأجانب الذين يأتون لرؤيتى . إن هذا أمر يسير ، فأنى أستطيع أن أقوم لك بما تريد . ثم أسرع إلى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور وعاد ثانية يستأنف حديثه : « هاك بعض تاريخ حياتى مدوناً بالفرنسية ، وفهرسا كاملا لجميع مؤلفاتى . أى صورة تعجبك ؛ إنى أظن أن أحسن صورى ما كان جانبيا ، ولكن لك الاختيار . فى أى صحيفة ستنشر هذا المقال ؟ أفى صحيفة يومية أم فى مجلة ؟ فلما رأى أنى لم أجبه إلا بنظرة حائرة ساهمة عاد إلى مكتبه وأخرج كتابا صغيرا وقدمه إلى قائلا : هاك أشهر المقالات التى نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتى ، إنها مدبجة بأقلام كبار الناقدين . ألا تريد صورة تنشرها مع المقال ؟ ثم أسرع ذلك الرجل الذى لا يعرف التعب إلى مكتبه وجاءنى بأقاصيص من الورق مكتوبة بخط يده ، فلم أستطع أن أخفى دهشتى ، ولكن صاحبى مضى فى حديثه قائلا : أليس هذا كل ماتحتاج إليه ؟ أظنك تريد أن تعرف كيف أكتب ، سأخبرك حالا : إنى أعمل أربع ساعات فى اليوم ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة فى جلسة واحدة . إنى لا أستعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية ، لأنى صنفت كل مواد الكتابة تصنيفا جديدا . فى هذا الصندوق تجد الصفات ، وفى ذلك تجد التشابيه والاستعارات ، وفى الثالث تجد المتناقضات ، وفى الأخير تجد أوصاف المناظر الطبيعية ، وفى ذلك الذى عن يمينه تجد الأوصاف الغريبة لجميع الناس . أما الذى عن يساره فقد جمعت فيه كل عناوين القصص والمسرحيات . أظنك الآن تستطيع أن تفهم أن عملى ليس شاقا جدا بفضل هذا الترتيب . إنى أكتب بدون تفكير كأنى آلة : فاذا أردت أن أكتب شيئاً فما على إلا أن أضع يدى فأخرج ما أحتاج إليه . إنى لست أحد أولئك البلهاء الذين ينتظرون الوحى والالهام ، فانى أكتب بانتظام وفى أوقات معينة . فماذا ترى فى هذا ؟ فحاولت أن أتكلم ولكنى لم أستطع . فمضى صاحبى يقول : « أخبرنى . ألا يمكن أن تؤدى لى عملا فى إيطاليا ؟ ألا يمكنك أن تنقل بعض كتبى إلى الايطالية ؟ إنى أعطيك ٤٠ ٪ فى المائة من الأرباح وحق النشر فى بلادك . دعنا نكتب العقد .

ومن حسن الحظ أن دق جرس التليفون فى الغرفة الثانية فأسرع إليه الرجل دون استئذان ، ولكنه مالبث أن جاءنى يقول : عفوا إن ناشرى كتبى فى ميونيخ يطلبوننى . دعنا نستأنف حديثنا . قل لى بصراحة : ألا تستطيع أن تقوم بهذا ! فنهضت مذعورا وأنا أعجب أن تكون هذه اليد الغليظة قد جرت بتلك الروائع الخالدة ، ثم صوبت نظرى إلى الباب ولكنه لم يكد يرانى أنهض حتى صاح : ألا تنتظر الشاى ! إن زوجى وطفلى سيعودان حالا وستتناول الشاى معاً . ألا تريد أن ترى طفلى ؟ إنهما طفلان جميلان ، أحدهما فى السابعة والآخر فى الحادية عشرة ، إن زوجى تجيد العزف على « البيان » ، وتتقن فن التصوير . إن هذه اللوحات الفنية التى تراها على الجدران من ريشتها ، فقبعت فى كرسى وأنا أتفرس فى وجه ذلك الرجل الذى لم يفتأ يقوم ثم يقعد ويفتح الأدراج ثم يقفلها وأخيراً قال لى : هنا تجد الطبعة الأولى من كتبى ، وفى الدرج الآخر تجد الطبعات الثانية ، وتحتها التراجم . إنه محصول كبير ، أليس كذلك ؟ إنى أعنى بها عنايتى بأطفالى . ثم أخذ يقهقه عاليا فلم أطق أن أرى فكيه ينفرجان عن فم واسع كريه ، فصحت : يجب أن أذهب ، ثم اندفعت إلى الباب وتدحرجت على السلم ؛ وبدون أن أشعر وجدت نفسى خارج المنزل ، وما كدت أصل إلى منزلى حتى ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون فى النار

ترجمة نظمى خليل

البريد الأدبي

اكتشاف مدهش في الموميات المصرية:

وقع العلماء الأثريون في متحف «المتروبوليتان» بنيويورك على اكتشاف مدهش في شأن الموميات المصرية القديمة؛ فقد رأى الدكتور ونلوك مدير المتحف أن يسلط أشعة رنتجن على لفائف الموميات لأول مرة، وقد انتهى البحث إلى نتيجة مدهشة؛ وكان بعض العلماء قد سلط هذه الأشعة على الموميات من قبل فكانت النتيجة سلبية دائماً لأن اللفائف الكثيرة التي تحيط بالجثث المحنطة كانت تحول دون ظهور أية نتيجة. ولكن العلامة الكيميائي الدكتور أرثوركوب توصل إلى اختراع جهاز جديد، واستعمل الدكتور ونلوك للكشف على مومياءين ترجعان إلى الأسرة الحادية عشرة، وهي مما وجدته البعثة الامريكية أثناء حفرياتها بمصر سنة ١٩٢٠، فكشفت الأشعة عن حقيقة مدهشة هي أنه يوجد تحت هذه اللفائف العديدة، وفوق الجثة المحنطة كثير من الحلي والجواهر التي زينت بها الجثة في الصدر والعنق والمعاصم، وبذا كشفت الصورة التي أخذت عن كنز لم يكن يحلم به إنسان، ففي عنق المومياء وجدت أربعة عقود، منها واحد ذهبي يتوسطه بعض اللآلىء الكبيرة والصغيرة، وعقد من اللآلىء الصناعية الصغيرة (الخرز)، ووجد على الصدر غطاء من الخرز وعقد كذلك، وكشفت الاشعة عن سوارين، كل معصم فيه سوار من الخرز وثلاثة جعارين كبيرة قد ثبتت فيهما. كذلك كشفت الاشعة عن سوارين في مفصل القدمين كسواري المعصمين. ومن أعجب ما كشفت الاشعة هيكلا جرذين صغيرين عند القدم يظهر أنهما تسربا إلى الجثة عند ربطها. وقد رأى العلماء ازاء هذا الاكتشاف أن يحاولوا نزع اللفائف عن المومياء، بيد أنه رؤى قبل ذلك أن تتخذ كل الوسائل العلمية لحفظها خوفاً عليها من التلف. وقد عرضت الصور التي كشفت عنها الأشعة بجانب المومياء في متحف نيويورك.

شعب مصري في غانة الجديدة؟

نشرت إحدى الصحف الالمانية التي تصدر في بودابست نبأ اكتشاف غريب وفق إليه بعض الطيارين والعلماء الانكليز أخيراً في جزيرة غانة الجديدة التي تقع في المحيط الهادي على مقربة من استراليا، فقد طار إلى الجزيرة بعض الطيارين الاستراليين وتوغلوا في داخلها، فوقعوا على شعب غريب عن أهلها يعيش في الداخل ويبلغ عدده زهاء مائتي ألف، وليس بينه وبين باقي سكان الجزيرة شبه في الجنس أو العادات. وجاء بعدهم بالطيارة إلى الجزيرة بعض الاخصائيين في علم الأجناس وبحثوا أحوال هذا الشعب المتأخر المنقطع عن العالم فألفوه ماهرا في الزراعة خبيراً بطرق الري. ورأى العلماء أنه يوجد بين هذا الشعب وبين المصريين شبه كبير، ورتبوا هذا الاستنتاج على عدة حقائق علمية، منها أنهم يحرزون من الآلات الموسيقية ماهو شبيه بالآلات التي ترسم على الآثار الفرعونية، كذلك اسلحتهم الحجرية تشبه أسلحة المصريين القدماء. كذلك يوجد في معتقداتهم الدينية كثير مما يشبه عقائد المصريين القدماء. ويرى هؤلاء العلماء المكتشفون أنه ليس بعيداً أن يكون المصريون القدماء قد ساحوا إلى تلك المياه في العصور الغابرة، ونزلوا على تلك الجزيرة الثانية وحل بعضهم بها، وأقاموا فيها مجتمعا خاصا بهم ونقلوا اليها بعض عاداتهم وحضارتهم. بيد أنه يبقى على أولئك العلماء أن يبحثوا عما إذا كان لذلك الشعب من الخواص الجنسية، وعما إذا كان في لغته، ما كان للشعب المصري القديم؛ فاذا وقفوا إلى وجود هذه الخواص، فعندئذ يغدو الاكتشاف حقيقة علمية لا ريب فيها

ولقد دلت أبحاث المكتشفين من قبل على وجود آثار حضارة مشابهة لحضارة الفراعنة في بعض أنحاء أمريكا الجنوبية والمكسيك، ولكن البحث لم يقطع بوجود الصلة بين هذه الحضارة وحضارة المصريين القدماء.

فيبر عميد الموسيقى الالمانية

احتفلت دوائر ألمانيا الفنية والموسيقية أخيراً بذكرى الموسيقي الالماني الكبير كارل ماريافون فيبر Weber وذلك لمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على وفاته. وكان مولد هذا الموسيقي الكبير في ديسمبر سنة ١٧٨٦ في إحدى قرى هولشتين وكان أبوه رئيساً لموسيقى البلاط المحلي — فخرج على رأس فرقة من الممثلين الهزليين يطوف

جميع أرجاء ألمانيا ، ومعه ابنه فيبر ؛ وهكذا قضى الموسيقي العظيم حداثته متجولا فى مختلف الأنحاء ؛ ومنذ سن العاشرة ظهر شغفه بالموسيقى ؛ ولم يمض عامان حتى وضع أولى مقطوعاته الموسيقية ؛ وفى الرابعة عشرة وضع أولى « أوبراته » ، وفى الثامنة عشرة أتم فيبر دراسته الموسيقية ، وغدا علماً يشار إليه . وتولى رياسة الفرقة الموسيقية فى برزلاو - وقام بتنفيذ موسيقى « طيطوس » لموتسارت ثم التحق بخدمة دوق فرتمبرج . وبعد أن تنقل حينا فى قصور هذا الأمير اتهم بالتدخل فى الشؤون السياسية فقبض عليه وزج إلى السجن. ولما أطلق سراحه تقلب حينا بين مانهايم ودارمشتات وبامبرج حيث تعرف بالكاتب الأشهر هوفمان ، ثم زار ميونيخ وهنالك مثلت « أوبرته » « أبو حسن » ، ثم قصد إلى فيمار وتعرف بشاعر ألمانيا الأكبر جيته ، واشتغل بعد ذلك فى درسدن وفى برلين واشتهرت أوبراته ومقطوعاته الغنائية ؛ وكانت أشهر قطعه « فراى شتس » التى نالت فى عصره أعظم نجاح ، والتى تعتبر فاتحة عهد جديد فى تاريخ الموسيقى وهذه القطعة التى حملت فاجنر فيما بعد على أن يقول « لم يوجد موسيقى أكثر ألمانية من فيبر »

وتوفى فيبر فى الأربعين من عمره فى لندن ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى مدينة درسدن تثوى إلى يومنا .

عيد جريدة الطان

من أنباء باريس أن جريدة « الطان » كبرى الصحف الفرنسية قد احتفلت بعيدها الخامس والسبعين فى حفل فخم أقيم فى بهو الاستقبالات بقصر أورسى ، وشهده جمع عظيم من الوزراء والنواب وأكابر الكتاب والفنانين ورجال المال والصناعة وأعضاء الأكاديمية والمجمع العلمى ، وخطب فيه عدة من الوزراء وأقطاب التفكير الفرنسى مثل مسيو أندريه تارديه ، ورنيه بو ، وجاك شاستنيه وغيرهم منوهين بعظمة الطان وعظمة المهمة التى تضطلع بها وكونها فخر الصحافة الفرنسية بلا مراء سواء من حيث رصانتها وسمو تفكيرها أو أسلوبها الرفيع المتزن ، والواقع أن الطان على رغم ثوبها المحافظ وحرصها على القديم وإحجامها عن مجاراة التطور الصحفى المعاصر من حيث التصوير والتنويع ، تبقى عميدة الصحافة الفرنسية من حيث غزارة مادتها وقوة تحريرها ونزاهة غايتها واحتشام أسلوبها

وقد أسست الطان منذ خمسة وسبعين عاماً سنة ١٨٦١ فى أواخر الامبراطورية الثانية ؛ وكان مؤسسها صحفيا يدعى نفتزر . أسسها أولا لخدمة التجارة الدولية . ثم تحولت إلى جريدة سياسية قوية ، أهم مظاهرها إذاعة الأنباء الدولية ؛ ثم كانت المرحلة الثالثة فى عنايتها بالعلوم والآداب والنقد ؛ وكتب فيها أئمة التفكير الفرنسى مثل شيرر وسانت بيف وبريسون وبلان ، وكتب فيها عظماء الوزراء والساسة مثل بوانكاريه وتارديه . وقد اشتهر مراسلوها الخارجيون بأنهم أعظم مراسلين من نوعهم حتى قيل فى المثل ان فرنسا لها سفيران : « السفير الفرنسى ومراسل جريدة الطان » وأشرفت على إدارة هذه الصحيفة الشهيرة مدى نصف قرن أسرة ايبرار ، التى أنجبت عدة من كبار الصحفيين والكتاب ، وكان آخرهم فى الاشراف عليها أميل ايبرار الذى تخلى عن إدارتها منذ نحو عشرة أعوام .

أيام تولستوى الأخيرة

صدرت أخيراً ترجمة انكليزية لمذكرات الكونتة تولستوى زوج الكاتب الروسى الأشهر ليون تولستوى بعنوان « المعركة الأخيرة » The Final Struggle ترجمها ومهد لها الكاتب الانكليزى الميرمود . وقد ذاعت عن أيام تولستوى الأخيرة قصص عديدة ، فقيل إنه فى أواخر حياته كان يعيش عيشة الفلاحين الذين اعتنق قضيتهم ؛ وقيل إنه رجل نظرى لا يفعل مايعتقد . فهذه المذكرات التى كتبها عن هذه المدة من حياته ألصق الناس به تبدد كثيرا من الأخطاء الذائعة وتلق ضوءاً كبيراً على خاتمة الكاتب العظيم فى مقامه الهادىء فى « سنايا بوليانا »

وقد اجتمعت أسباب عديدة لتنغص عيش تولستوى فى أعوامه الأخيرة ، وأهمها الدسائس والشجار المتواصلة بين زوجه وأبنائه من ناحية ، وبين ابنته الكبرى وهى أعظم أصدقائه . وكان تولستوى يود فى تلك الفترة أن يترك العالم لينقذ روحه ، وكانت ثمة مسألة مؤلفاته ولا سيما مذكراته وكلها ذات قيمة أدبية ومادية معا . وهذه المذكرات التى تنشر اليوم تشمل سنة ١٩١٠ التى توفى فيها تولستوى . وفيها مذكرات كثيرة من تحرير تولستوى نفسه عن أحواله وشؤونه اليومية .

وكانت هذه المذكرات بين تراث أسرة تولستوى حتى صحت عزيمة ولده سيرجى على طبعها واخراجها ، وقد تولى ترجمتها الميرمود صديق تولستوى وأخرجها فى أسلوب صادق مؤثر كما هى فى أصلها ، ومهد لها بمقدمة بديعة يحلل فيها شخصية الكاتب العظيم تحليلا يدل على الوفاء والاعجاب الذى لاحد له ، وشرح كثيرا من مواقفها وغوامضها . وماكادت هذه الترجمة الانكليزية تصدر حتى هرع القراء إلى اقتنائها بسرعة مدهشة دلت على مالذكرى الكاتب العظيم من الأثر والصدى .

جائزة للقصص التاريخى

كانت جريدة « الانترانسيجان » الفرنسية قد خصصت منذ حين جائزة مالية كبيرة ، تقوم بمنحها الأكاديمية الفرنسية والمعهد العلمى لمؤلف أحسن قصة تاريخية تعرض فيها حقائق التاريخ

فى أسلوب القصص الرفيع . وقد عقد أخيراً اجتماع كبير من بعض أعضاء الأكاديمية وكثيرين من رجال الأدب لتخصيص هذه الجائزة عن سنة ١٩٣٦ ، وكانت لدى اللجنة عشرة مخطوطات جديدة ، فنال الجائزة المسيو روجيه رجيس عن قصته التاريخية التى عنوانها «La Belle Sabotière» وهى قصة تدور على أسر نابوليون الثالث فى الحرب السبعينية فى قلعة « هام » ، وبطلتها فتاة حسناء هى « صانعة قباقيب » ؛ ومع أن للواقعة أصلا تاريخيا لا شك فيه ، فان المؤلف استطاع أن يخرج منها قصة خيالية ممتعة .

وقد تبوأت القصة التاريخية مركزها فى الأدب الفرنسى فى العصر الأخير بنوع خاص وكان كتابها فى الغالب مؤرخين من الطراز الأول ، وكان أستاذ هذا الفن من المعاصرين المؤرخ لينوتر الذى توفى منذ نحو عام ، وكان يكتب قصصه التاريخية فى جريدة « الطان » بعنوان « التاريخ الصغير » وفيها يحيى شخصيات وحوادث تاريخية مجهولة ويسبغ عليها من قلمه سحراً لا يبارى

ألمانيا وكتابها المنفيون

أصدرت الحكومة الألمانية أخيراً قانوناً بنزع الجنسية الألمانية عن طائفة كبيرة من الكتاب والمفكرين الذين يخاصمون النظام الهتلرى والذين غادروا ألمانيا منذ بدء الحركة اتقاء الفتك والمطاردة . ومن هؤلاء الذين نزعت عنهم الجنسية الكاتب القصصى الكبير توماس مان وجميع أفراد أسرته ، والمؤرخ الكبير الأستاذ ديتريش فون هلدبراند الذى يشغل الآن كرسيا فى جامعة فينا ، وعدة كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين الذين يقيمون فى مختلف العواصم الأوربية . وهذا آخر إجراء تتخذه الحكومة الهتلرية فى شأن هؤلاء الكتاب المنفيين بعد أن نزعت كل أملاكهم وحرمت نشر كتبهم فى ألمانيا .

حياة النور

النور أو الغجر من الشعوب البدوية المدهشة التى مازالت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها القديمة وسط أمواج الحضارة الحديثة . ومع أن النور يستقرون جماعات كبيرة فى أواسط أوربا ، ولا سيما فى المجر ورومانيا ، فانهم بدو فى أعماق نفوسهم بمعنى أنهم لا يستقرون على أسلوب معين فى الحياة . وقد صدر أخيراً بألمانيا كتاب عن هذا الشعب الغريب بقلم الدكتور مارتنى بلوك عنوانه « النور : حياتهم ونفسيتهم » « Zigeuner, ihr Lebenund ihre Seele » وأصدره معهد التراجم بمدينة لايبزج ، ويتناول المؤلف حياة النور وخواصهم وعاداتهم ، ثم يحاول شرح نفسيتهم ومشاعرهم وتفكيرهم بطريقة تدل على تعمقه فى هذا البحث . ويبين محاسن عاداتهم التى ما زالت تقوم على الفطرة والسذاجة كما يبين مساوئهم وميولهم الخبيثة التى أملتها عليهم عصور من التشريد والاضطهاد . ومع أنه ينحو فى مؤلفه نحواً علميا رزينا فانه يتبع فى نفس الوقت فى عرض آرائه أسلوبا بسيطا جذاباً ؛ ويفيض المؤلف فى خواص النور النفسية والفكرية والفنية ، ويصف براعتهم فى بعض الفنون مثل الموسيقى التى اشتهروا بها ونحوا فيها نحواً خاصاً لايباريهم فيه أحد .

ومع أن مصادر هذا البحث ليست كثيرة ، فان الدكتور بلوك استطاع أن يجمع فى مؤلفه شوارد موضوعه بافاضة ، وأن يجمع فيه كثيراً من المسائل والحقائق التى تلقى ضياء كبيراً على حياة هذا الشعب الغريب الذى مازال ينظر إليه أينما حل بعين البغض والريب

جريدة الشباب بدلا من الشورى

جاءنا من الأستاذ محمد على الطاهر أنه اتفق مع الأستاذ محمود عزمى على أن يتولى إصدار جريدته « الشباب » بشكل آخر فى خلال شهر فبراير المقبل .

وهو يرجو من أصدقاء الشورى القدماء أن يمنحوا الجريدة الجديدة نفس الثقة التى منحوها للشورى ، وسيظل عنوانه كما كان : ٣٠ شارع عبد العزيز بمصر تليفون ٥٦٨٠٠

الكتب

شرح الايضاح

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أتمت المطبعة المحمودية التجارية ، ومكتبتها بالأزهر بمصر طبع الجزء الثالث من شرح الايضاح فى علوم البلاغة للأستاذ عبدالمتعال الصعيدى المدرس بكلية اللغة العربية

وقد بدأ فى هذا الجزء بشرح قسم علم البيان من كتاب الايضاح وأتمه فيه ، وسار فى شرحه على منوال الجزء الأول والثانى ، لا يعنى بالمماحكات اللفظية ، والمناقشات التى لا تتصل بصميم علوم البلاغة ، وإنما عنى بتحقيق مسائل هذه العلوم ، وبشرح شواهدها ونسبتها إلى أصحابها . وقد يذهب فى ذلك إلى مخالفة من سبقه من علماء هذه الفنون ، كما ذهب فى هذا الجزء إلى أن وظيفة علم البيان تخالف وظيفة علم المعانى مخالفة تجعله علماً مستقلا عنه ، وليس شعبة منه ، كما ذهب إليه الامام السكاكى ومن تبعه

فوظيفة علم المعانى على هذا تطبيق الكلام على مقتضيات الأحوال ، ومرجع ذلك إلى مراعاة ما يرجع فيه من جهة البلاغة ؛ ووظيفة علم البيان معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من الدلالة ليعرف ما يقبل منها وما لا يقبل ، ويحترز بهذا فيها عن التعقيد المعنوى ؛ ومرجع ذلك فى الكلام إلى مراعاة ما يجب فيه من جهة الفصاحة بقطع النظر عن مراعاة مقتضى الحال وإن كان لابد من ذلك فيه ، ولكن هذه وظيفة علم المعانى ، وشأنها من وظيفة علم البيان كشأن وظيفة علم النحو وغيره منها

وعلى هذا لا يكون من شأن علم البيان أن ينظر فى مثل قول امرىء القيس :

ألم تسأل الربع القديم بعسعسا   كأنى أنادى إذ أكلم أخرسا

من جهة مطابقته لمقتضى الحال أو عدم مطابقته له وإنما ينظر فيه من جهة فساد التشبيه ، لأجل أنه لا يقال كلمت حجراً فلم يجب فكأنه كان حجراً ، وإنما الجيد فى ذلك قول كثير عزة :

فقلت لها يا عز كل مصيبة   إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

كأنى انادى صخرة حين أعرضت   من الصم لو تمشى بها النفس زلت

وكذلك ينظر فى قول امرىء القيس :

وأركب فى الروع خيفانة   كسا وجهها سعف منتشر

من جهة فساد الاستعارة فيه ؛ لأنه إذا غطى الشعر العين لم يكن الفرس كريماً ، ولا يعنيه فى ذلك اعتبار المطابقة وعدمها

وكذلك ينظر فى قول أبى تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه   بكفيك ما ماريت فى أنه برد

من جهة أن الرقة لا تستعار للحلم ، وإنما يوصف بالرجحان والرزانة كما قال النابغة :

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً   وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وهكذا يسير الشرح فى علم البيان على هذا المنوال ، يطنب إذا اقتضى المقام الاطناب . ويوجز إذا اقتضى المقام الايجاز ، فجزى الله مؤلفه عنه خير الجزاء ؟ (ص)

مرافعات

تاليف الأستاذ حسن الجداوى

كثير منا رأى الدفاع فى قاعة المحكمة وهو يدافع عن المتهم . . يدافع عن المجرم ! ويحاول بقوة حجته وشدة عارضته وذلاقة لسانه أن يحطم الأغلال والقيود التى تطوق الرجل ويطلقه من إساره . . . أو يرجو متى أفلت أمر الرجل من يده وغدا مصيره إلى الظلمات أن يعامل بروح القانون . وكثير منا أنصت إلى وكيل النائب العام وهو يحمل على المتهم ، ويدافع عن الانسانية المعذبة فى أشخاص هؤلاء المجرمين السفاكين الذين يسودون وجه الحياة المشرق النضير ويلطخونه بالدماء ، لا يزجرهم زاجر ولا ياخذ على أيديهم قانون . ولكن قليلا منا من فكر فى الظروف القوية التى تسوق المجرم إلى الاجرام ، قليل منا من فكر فى ظروف الحياة القاسية التى تخلق

المجرمين والسفاكين وتدفعهم إلى ارتكاب أشنع الآثام . قليل من الناس من يفكر كما يفكر الدفاع وهو يدرس القضية ويقف أمام القضاء يشرح أدوارها ويبسط فصولها ويلقى الضوء القوى الباهر على ماخفى منها من أسرار .

هذه المرافعة البيانية القوية لها أثرها المحمود فى نفوس القضاة ونفوس الناس ، فكثيراً ماتقسو الحياة وتتضافر العوامل السيئة على المتهم المسكين ، فلا ينقذه إلا محاميه ومرافعة محاميه ، متى كانت قوية خلابة كهذه المرافعات التى بين أيدينا الآن ، والتى ترجمها الأستاذ حسن الجداوى عن الفرنسية وتخير فيها قضايا إنسانية تقع فى كل بلد وتجرى فى كل محكمة وتدور على كل لسان . فقضايا حرية الرأى والصحافة والدفاع عن العرض ، والقتل بدافع الغيرة والشفقة ، والخيانة الزوجية التى يضمها هذا الكتاب القيم ،كلها قضايا إنسانية لاتقف على بلد واحد وشعب واحد . ولقد أبدع المترجم فى الترجمة خير ابداع ، ووفق أحسن توفيق ، فجاء كتابه تحفة أدبية رائعة أكملت نقصاً محسوساً فى المكتبة العربية وسدت فراغا كبيراً فى الأدب القضائى

وسيجد القارئ فى مرافعة بعض المحامين الفرنسيين منطقاً أخاذاً ولساناً رائعاً دعم بالدراسة الفنية الدقيقة كمرافعة جوزيه فى قضية التجميل حتى قال عنها زميله وخصمه ولقد أدهشتنى مرافعة الأستاذ جوزيه تيرى بما فيها من معلومات طبية أنحنى أمامها ، كنت أسائل نفسى أيهما أخطر على « الأستاذ جوزيه تيرى أو الدكتور جوزيه تيرى ؟ » وهذا أقل مايجب أن يكون عليه المحامى فى هذا العصر ، إحاطة شاملة بعلم التشريح وعلم الاجرام وعلم النفس

وفى قضية حرية الدفاع سيقرأ القارئ دفاعاً فذاً فيه بلاغة وقوة وبيان وحجج منطقية وكلام يجرى مجرى الأمثال « إن القوانين لم تعد تطبق بل أصبحت تفسر ، وتفسر دائماً بالمعنى الذى لا تدل عليه ولا أراده المشرع لها . . . إنهم يعذبون القوانين ليجعلوها صالحة لتعذيب الناس » وما الذى سيقوله القارئ بعد هذا الكلام .

وفى محاكمة شارل الأول ترى صورة قوية للشعب الانجليزى الصابر الباسل المتفانى فى حب مليكه حتى فى عهد كرمويل .

وفى القرن الماضى أعدم مجرم شق بطريقة همجية وحشية فثار شارل هيجو ابن شاعر فرنسا الكبير فوصف الحادث فى الصحف وحمل عليه حملة شديدة وسيق بعدها إلى المحاكمة . ومما كتب قوله :

« ما الذى ارتكبه هذا الرجل ضد الهيئة الاجتماعية ؟ أنه قتل . . وما الذى فعلته الهيئة الاجتماعية بذلك الرجل ؟ إنها عذبته . . . ولكن أتدرون ما الأثر الذى تركته فعلتكم ؟ لقد أتيتم أمرا إدا ، فيه قسوة وفيه وحشية وفيه إيلام . . إنكم بدلا من أن تكسبوا عطف الجمهور المشاهد لجانب القانون كدتم تحولون عطفه لجانب المجرم . . لقد أخفق الجلاد الأول فجئتم بثان ، وبعد نصف يوم من جهاد مستمر استطعتم آخر الأمر أن تقهروا الرجل ، وتمسحوا فى آن واحد الدم من نصل المقصلة والعرق من جباهكم . . لا لا . إن الاعدام ليس بالمنظر الجميل . . . »

ومرافعات الكتاب كلها قوية بليغة وهى على نسق قصصى يسر ويشوق ، ويعرض صوراً بارزة من الحياة . وسيجد فيها القارئ لذة خالصة وفائدة محققة ، أما المحامى فسيطلع فى لغته على مرافعات يكفى أن يقال عنها إنها لأفذاذ رجال القانون .

هذا والكتاب مطبوع طبعاً جيدا على ورق ناعم وغلاف مقوى وهو يقع فى ١٨٠ صفحة من القطع الكبير وهو مفهرس الأعلام حسن التبويب زهيد الثمن .

ونرجو ونحن نهنئ المؤلف على جهده الأدبى المشكور أن يتحفنا دائماً بأمثال هذا الكتاب الرائع .

محمود البدوى